منارات في الطريق

تأليف
عبد العزيز بن ناصر الجليل

دار طيبة للنشر والتوزيع

ⓒ دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢١هـ
فهرست مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الجليل، عبد العزيز بن ناصر
منارات في الطريق.- الرياض
٢٤٨ص، ١٧×٢٤سم
ردمك: ٤ - ٤٧ - ٨٠٠ - ٩٩٦٠
١ - الدعوة الإسلامية ٢ - المقالات العربية - السعودية أ - العنوان
ديوي ٢١٣ ٢١/٠١٣٥

رقم الإيداع: ٢١/٠١٣٥
ردمك: ٤ - ٤٧ - ٨٠٠ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

دار طيبة للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض - السويدي - ش. السويدي العام - غرب النفق
ص.ب: ٧٦١٢ - رمز بريدي: ١١٤٧٢ - ت: ٤٢٥٣٧٣٧ - فاكس: ٤٢٥٨٢٧٧

منارات في الطريق

تأليف

عبد العزيز بن ناصر الجليل

دار طيبة للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فهذه مقالات في الدعوة والتربية – نشر بعضها في مجلة البيان – قد أسميتها [منارات في الطريق].

وأعني بالطريق: طريق الدعوة إلىٰ الله عز وجل، وبالمنارات: أعلام الطريق – كما جاء ذلك في تهذيب اللغة للأزهري – وهي بمثابة أعلام أو معالم في طريق الدعوة إلىٰ الله عز وجل، أنبه نفسي وإخواني إليها من باب التناصح والتواصي بالحق؛ وهو أمر واجب بين المسلمين بعضهم لبعض، وبخاصة القائمين بالحق والداعين إليه.

ولئن كان جل هذه المنارات لا يخفىٰ علىٰ كثير منا، إلا أن المرء قد يغفل عن العمل بمقتضاها أو مقتضىٰ بعضها بسبب تداخل الأعمال

والمشاغل، وبسبب تأثير الواقع وضغطه؛ فمن هذا المنطلق، ولهذا السبب كانت الكتابة عن هذه المنارات؛ تذكيرًا بها ولفتًا للأنظار إليها؛ خاصة وأنها نتاج ملاحظات وخواطر وتأملات في واقع الدعوة والدعاة.

أسأل الله عز وجل أن ينفعني وإخواني المسلمين بها، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وموافقة لهدي رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم.

❁ ❁ ❁

المنارة الأولىٰ

من المقصود بالدعوة إلىٰ الله عز وجل؟

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه وبعد.

فقد يكون في عنوان هذه المقالة شيء من الغرابة عند البعض ذلك لأن الجواب معروف ولا يجهل أحد أن المقصودين بالدعوة إلىٰ الله عز وجل هم طوائف الناس علىٰ اختلاف مشاربهم وذلك بتعبيدهم لربهم سبحانه حتىٰ يسعدوا في الدنيا بالحياة الطيبة وفي الآخرة برضوان الله عز وجل وجنّته.

فإذا كان الجواب معروفًا فما المقصود بعنوان المقالة إذن؟

إن المقصود بهذا السؤال تنبيه نفسي وإخواني الدعاة إلىٰ أن الدعوة إلىٰ الله عز وجل تعني أول من تعني دعوة النفس إلىٰ الله عز وجل وتعبيدها له سبحانه ويدخل في ذلك الأهل والقرابة، لأن المشاهد في حياة الكثير منا الاهتمام بدعوة الآخرين ونسيان النفس أو الغفلة عنها في زحمة دعوة الآخرين وهذا إنما نشأ من أن مفهوم الدعوة قد ينحصرعند الكثير منا في دعوة الناس ولم نتنبّه إلىٰ أن الدعوة إلىٰ الله عز وجل علىٰ قسمين: دعوة النفس، ودعوة الغير.

والذي دفعني إلىٰ إثارة هذا الموضوع، ما رأيته من نفسي ومن بعض إخواني الدعاة من غفلة عما ينقص النفس من واجبات وأخلاقيات أو ما يتلبس بها من مثالب وأمراض باطنة وظاهرة يجب أن يُبذل الجهد في إزالتها وأن تُدعىٰ النفس إلىٰ الدخول في السلم كافة. ويلحق بذلك الأولاد والزوجة والوالدين ثم الأقرب فالأقرب.

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [التحريم: ٦].

ولا يعني هذا ترك دعوة الآخرين حتىٰ تصلح النفس ويصلح الأهلون والأقارب. كلا.

فالكمال عزيز والنقص من طبيعة الإنسان.

ولكن المراد الاعتناء بالنفس والأهل ودعوتهم إلىٰ الله عز وجل في الوقت الذي يدعا فيه الآخرون ويجب أن تسير دعوة النفس ودعوة الغير في خطين متوازيين غير متقاطعين.

وكم يكون لدعوة الآخرين من ثمرة وفائدة كبيرة إذا كان الداعية مهتمًا بنفسه محاسبًا لها داعيًا لها إلىٰ الله عز وجل وذلك لما يضع الله تعالىٰ علىٰ يديه من البركة والقبول في أقواله وأفعاله، ولما يجد الناس فيه من القدوة والمثال الذي يُحتذىٰ، فالناس ينظرون إلىٰ الأفعال أكثر من نظرهم إلىٰ الأقوال المجردة.

المنارة الثانية

وادع إلى ربـك

الحمـد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلـم وبارك علىٰ عبـده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه وبعد.

فبعد أن تبين لنا في المقالة السابقة من هم المقصودون بالدعوة إلىٰ الله عز وجل نتعرف في هذه المقالة علىٰ مسألة مهمة تتعلق بالإخلاص في الدعوة إلىٰ الله عز وجل وهي مسألة قلما نتنبّه إليها أو ننبه عليها وجُلُّ ما نفهمه من معنىٰ الدعوة إلىٰ الله عز وجل هو أن الداعية إنما يدعو إلىٰ ربه وإلىٰ سبيله وتوحيده وطاعته وإلىٰ أقامة دينه كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

ولا شك أنّ هذا معنىٰ صحيح وهدف أساس للدعوة إلىٰ الله عز وجل لكنْ هناك معنىٰ لطيف ومسألة عظيمة يتضمنها مفهوم الدعوة إلىٰ الله تعالى، يتعلق بإخلاص الدعوة لله سبحانه قلما ننتبه إليه وهو ما أشار إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ في (مسائل

باب الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله) وهو من أبواب كتاب التوحيد حيث يقول :

(المسألة الثانية : التنبيه على الإخلاص ، لأن كثيراً لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه) .

يا لها من مسألة عظيمة يغفل عنها الكثير منّا وإنها لمن الدقة واللطف بحيث توجد عند البعض منا دون الشعور بوجودها . وإن لم يفتش الداعية عنها في نفسه ويبادر إلىٰ التخلص منها فإنها قد تكون سببًا في حبوط العمل وضياع الجهد عياذاً بالله تعالى . ولإتمام الفائدة أسوق فيما يلي بعض العلامات والمظاهر التي يدل وجودها علىٰ تلوث القلب بهذه الآفة الخطيرة .

(١) الحزبيّة المقيتة التي تدفع بصاحبها إلىٰ عقد المحبة والعداوة علىٰ الأسماء والأشخاص والطوائف .

(٢) حب الشهرة والصدارة والتفاف الناس وكراهية الدعاة الآخرين والانقباض والضيق من تجمع الناس حولهم، لا لشيء إلا لأن في ذلك منافسة وحسداً في القلب .

(٣) التزهيد في أعمال بعض الدعاة وتحقيرها وتشويهها حتىٰ ولو كان هذا العمل قد ظهر خيره وصلاحه . فلا ترىٰ صاحب القلب المريض الذي يدعو إلىٰ نفسه وليس إلىٰ الله تعالىٰ إلا مستاء من ذلك

ولو كان الأمر إليه لأوقف كل عمل خير يقوم به غيره، وهذا من علامات الخذلان عياذاً بالله تعالى. لأن العبد المخلص في دعوته إلىٰ الله تعالىٰ يحب كل داعية إلىٰ الخيْر ولو لم يعرفه أو لم يره ويدعو له بظهر الغيب ويفرح بأي باب من الخير يفتحه الله تعالىٰ علىٰ يد من كان من عباد الله، ويفرح بأي باب من الشر يغلق علىٰ يد من كان ذلك، لأن في ذلك صلاحًا للعباد وإسهامًا في هدايتهم وتعبيدهم لرب العالمين، وكفىٰ بذلك هدفًا وثمرة تثلج صدر الداعية المخلص، سواء تحقق ذلك علىٰ يده أو علىٰ يد غيره من الداعين إلىٰ الله تعالى.

(٤) الوقوع في غيبة الدعاة أو السعي بالنميمة والوشاية لإلحاق الأذىٰ بهم أو إشاعة ما هم منه برءاء في الناس حتىٰ ينفضوا من حولهم ويلتفوا حوله.

وأكتفي بهذه العلامات كأمثلة سريعة لهذا المرض، وإلا فالأمثلة كثيرة وكل إنسان أدرى بنفسه وهو علىٰ نفسه بصيرة. والمقصود التنبيه علىٰ هذه الآفات الخطيرة التي تمحق بركة الأعمال في الدنيا وتذهب بأجرها في الآخرة.

❁ ❁ ❁

المنارة الثالثة

من صفات الموعودين بالجنة

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه وبعد.

فإن غاية ما يرجوه المسلم من عبادته لربه سبحانه في هذه الدنيا هو الفوز برضوانه تعالىٰ وجنته والنجاة من سخطه والنار... ومن علامة توفيق الله سبحانه لعبده المؤمن أن يدله ويوفقه لأقرب الطرق وآكدها لتحصيل هذه الغاية العظيمة. ولا شك أن الطريق إلىٰ ذلك هو طاعته سبحانه بإخلاص ومتابعة وترك معاصيه بإخلاص ومتابعة؛ هذا علىٰ وجه الإجمال، أما علىٰ وجه التفصيل، والمفاضلة بين الأعمال الصالحة وأحبها إلىٰ الله عز وجل وأرضاها له، فإن المستقرئ لكتاب الله عز وجل وما ورد فيه من صفات أهل جنته ورحمته ورضوانه ليجد شيئًا عجيبًا جديراً بالتأمل والتدبر، ذلك أن جل ما ورد من الآيات التي يذكر فيها سبحانه ما أعد لأوليائه من الجنة والرضوان يسبقها في العادة صفات الموعودين بذلك.

وبالتأمل في أوصافهم تلك نجدها تنحصر في الغالب في المجاهدين

والمهاجرين والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والصابرين علىٰ المحن والابتلاءات في طريق الدعوة والجهاد، والآيات في ذلك كثيرة، أذكر منها علىٰ سبيل المثال لا الحصر ما يلي.

الآية الأولىٰ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [آل عمران: ١٥٧].

الآية الخامسة قوله تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ

عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾

[آل عمران: ١٦٩ - ١٧٤].

الآية السادسة قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

[آل عمران: ١٩٥].

الآية السابعة قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٧٤].

الآية الثامنة قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التوبة: ٢٠ - ٢٢].

الآية التاسعة قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ

اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾

[التوبة: ٧١].

الآية العاشرة قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [الصف: ١٠، ١١].

الآية الحادية عشرة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة: ١١١].

والآيات في هذا كثيرة فهل من مشمر وبائع نفسه ابتغاء مرضاة الله وجنته؟

❁ ❁ ❁

المنارة الرابعة

لماذا الدعوة إلى الله عز وجل؟

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه وبعد.

فقد يبدو لأول وهلة غرابة عنوان هذه المقالة، إذ لا يعقل أن أي داعية إلىٰ الله عز وجل لا يعرف الغاية من دعوته إلىٰ الله عز وجل وجهاده في سبيله سبحانه؛ وهذا صحيح من حيث الجملة، ولكنْ هناك فرق بين المعرفة الذهنية المجردة وبين التحرك بهذه المعرفة والسير علىٰ ضوئها في واقع الناس ودعوتهم إلىٰ الله عز وجل. وكم رأى الواحد من نفسه ومن غيره غفلت عن هذه الأهداف أو مصادمتها لواقع الدعوة العملي مما ينشأ عنه مغالطات وانحرافات وسببها البعد عن هذه الأهداف.

والمحافظة علىٰ هذه الأهداف ومحاسبة النفس بين الحين والآخر علىٰ تحقيقها كفيل إن شاء الله تعالىٰ أن تنطلق الدعوة بعيدة عن حظوظ النفس وأهوائه. وبالتالي يجد الداعي أثر دعوته وثمرتها جليًا وسريعًا في نفسه وفي واقع الناس، كما يجد في نفسه أيضًا الحماس والاندفاع إلىٰ الدعوة والجهاد بغير ملل ولافتور، وأكبر من ذلك كله قبول سعيه عند الله عز وجل.

والأهداف الأساسية للدعوة والجهاد في سبيل الله عز وجل يمكن حصرها فيما يلي:

١- التعبُّد لله عز وجل بهذه الشعيرة العظيمة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي هي أصل الدعوة إلىٰ الله عز وجل والجهاد في سبيله سبحانه، فشعور الداعية أنه عبد لله عز وجل يحب ربه ويحب ما يحبه ربه من الدعوة والجهاد يعد من أكبر الدوافع إلىٰ بذل الجهد والجهاد في سبيل الله تعالىٰ ولو لم يحصل الداعية في دعوته وجهاده إلا علىٰ شعوره بالعبودية لله عز وجل لكفىٰ بذلك دافعاً وغاية عظيمة. كما أن في مصاحبة شعور العبادة لله تعالىٰ في جميع تحركات الداعية أكبر الأثر في التربية علىٰ الإخلاص وتحري الحق والصواب واللذان هما شرطا قبول العبادة والعكس من ذلك عندما ينسىٰ أو يغفل الداعية أنه متعبد لله تعالىٰ بدعوته وحركته، فإنه بذلك يضعف إخلاصه وتبدأ حظوظ النفس والهوىٰ يسيطران علىٰ القلب، كما يضعف مع ذلك اتباع الدليل وتحري الحق مما ينتج عنه في نهاية الأمر فتور الداعية أو مزلة قدمه والعياذ بالله تعالى.

٢- الفوز برضوان الله تعالىٰ وجنته في الدار الآخرة، وهذا هو ثمرة التعبُّد لله عز وجل السابق ذكرها، وهي الغاية العظمىٰ التي وعد الله عز وجل بها عباده الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والداعين إليه علىٰ بصيرة، ولقد تكاثرت الآيات في كتاب الله عز وجل التي تمدح الداعين

إليه سبحانه والصابرين علىٰ ماأصابهم في سبيله وما أُعد لهم في الدار الآخرة من الرضوان والنعيم المقيم. وعندما ينشد الداعية إلىٰ هذه الغاية وتنجذب نفسه إليها فإنه يستسهل الصعاب ويمضي في طريقه بقوة وعزيمة وثبات، كما أنه عندما يتعلق بهذه الغاية العظيمة ولا ينساها، فإنه بذلك لا يلتفت إلىٰ أعراض الدنيا الزائلة ولا ينتظر جزاء عمله ودعوته وجهاده في الدنيا، وإنما يروض نفسه ويربيها علىٰ أن تعطي من صبرها وجهدها وجهادها، ولا تأخذ منه شيئًا في الدنيا، وإنما تنتظر العطاء والثواب في الدار الآخرة من ربها الكريم في دار النعيم المقيم، ولذلك فإن أصحاب هذه النفوس المخلصة لا يتطرق إليهم الوهن ولا الفتور الذي يتعرض له أصحاب الأغراض الدنيوية القريبة، الذين إن حصلوا علىٰ أهدافهم في الدنيا رضوا وواصلوا العطاء، وإن تأخرت عليهم فتروا وكلوا وتوقفوا.

أما أصحاب الغاية العظيمة فهم لا يفترون ولا يتوقفون، لأن وقت ومكان توفية الأجر ليس مجاله الدنيا وإنما فيٰ الدار الآخرة دار الحساب والجزاء، ولذلك فهم يعملون ويجاهدون حتىٰ يأتيهم اليقين.

٣- إنقاذ الناس - بإذن الله تعالىٰ - من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، ومن ظلم الأديان إلىٰ عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا وشقائها إلىٰ سعتها وسعادتها، ومن عذاب النار يوم القيامة إلىٰ جنات النعيم.

وعندما يتذكر الداعية هذه المهمة الجسيمة وهذا الهدف الأساس من دعوته وجهاده، فإنه يضاعف من جهده ولا يقر له قرار وهو يرىٰ الشرك المستشري في الأمة والفساد المستطير في مجتمعات المسلمين؛ والذي يؤول بالناس إلىٰ الشقاء والظلم وكثرة المصائب في الدنيا وإلىٰ العذاب الأليم في الآخرة. ولذلك فلا ترىٰ الداعية المدرك لهذه الغاية من دعوته إلا خائفًا علىٰ نفسه وعلىٰ الناس من عذاب الله عز وجل في الدنيا والآخرة، ولا تراه إلا ناصحًا للعباد رحيمًا بهم يريد من دعوته هداية الناس وإنقاذهم بإذن الله تعالىٰ من الظلمات إلىٰ النور ومن عذاب الله عز وجل في الدنيا والآخرة، ولسان حاله ومقاله يردد قول مؤمن آل فرعون لقومه فيٰ قول الله عز وجل: ﴿ **وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾** ﴾ [غافر: ٣٠ – ٣٣].

وإن مثل هذا الشعور ليضفي الرفق بالناس والصبر علىٰ إعراضهم وأذاهم والحرص علىٰ كل مجال يفتح لهم أبواب الخير أو يغلق عنهم أبواب الشر، كما ينشىء في القلب محبة المصلحين الداعين إلىٰ الخير وهداية الناس في أي مكان من الأرض، كما أنه يدفع إلىٰ بذل الجهد والتخطيط والتعاون مع جميع الداعين إلىٰ الخير والبر والتقوىٰ بعيداً عن التعصب والحزبية والولاءات الملوثة.

المنارة الخامسة

أثر الدعوة والجهاد على عقيدة الولاء والبراء في نفس الداعية

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه وبعد.

فإن المتأمل في كتاب الله عز وجل وفي واقع الدعوة إلىٰ الله عز وجل يرىٰ أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ والجهاد في سبيله وبين عقيدة الولاء والبراء في نفس الداعية.

فكلما قويت الدعوة وقوي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الداعية المخلص لربه كلما قويت هذه العقيدة في نفسه وظهرت بشكل واضح في حياته ومواقفه ومحبته وعداوته؛ حتىٰ يصبح علىٰ استعداد أن يهجر وطنه وأهله وماله إذا اقتضىٰ الأمر ذلك.

بل إن هذه العقيدة لتبلغ ذروة السنام في قلب الداعية ومواقفه وذلك في جهاد أعداء الله ولو كانوا أقرب قريب قال الله تعالى: **﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُم**

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال: ٧٢].

والعكس من ذلك واضح ومشاهد فما من داعية فترت همته وضعف نشاطه ومال إلىٰ الدنيا وأهلها إلا كان الضعف في عقيدة الولاء والبراء مصاحبًا لذلك؛ ويستمر الضعف والتنازل تبعًا لضعف الاهتمام بشأن هذا الدين حتىٰ يصل إلىٰ مستوىٰ بعض العامة من الناس الذين لا هم لهم إلا الدنيا ومتاعها الزائل. ولو نوزع في شيء من دنياه لهاج وماج. أما أمر دينه ودعوته فلا مكان لذلك عنده فمثل هذا تصبح عقيدة الولاء والبراء في قلبه ضعيفة ورقيقة سرعان ما تهتز أو تزول عند أدنىٰ موقف، ولعل في هذا تفسيرًا لتلك المواقف المضادة للعقيدة؛ والتي نراها من أولئك البعيدين عن الدعوة والجهاد كتلك المواقف التي تظهر فيها أثر القوميات والوطنيات والقبليات علىٰ نفوس هؤلاء اللذين يعقدون ولاءهم وبراءهم وحبهم وعداوتهم علىٰ هذه الرايات الجاهلية وليس علىٰ عقيدة التوحيد والإسلام.. والحاصل أن عقيدة الولاء والبراء ليست عقيدة نظرية تدرس وتحفظ في الذهن المجرد، بل هي عقيدة عمل ومفاصلة ودعوة وجهاد ومحبة وكره.

فهي تقتضي كل هذه الأعمال وبدونها تصبح عقيدة في الذهن المجرد، سرعان ما تزول وتضمحل عند أدنىٰ موقف ومحك، فإن أردنا أن تقوىٰ هذه العقيدة العظيمة في نفوسنا فهذا هوطريقها: طريق الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالىٰ. وكلما ابتعد الداعي عن هذه الأعمال مؤثراً الراحة والدعة فهذا معناه هشاشة هذه العقيدة وتعرضها للخطر والاهتزاز، ولا غرابة في ذلك فإن الإيمان كما هو مقرر عند أهل السنة والجماعة: قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. والولاء والبراء من أخص خصائص الإيمان فهو يزيد بالعمل الصالح والذي من أفضله الجهاد والدعوة، وينقص بالمعصية والتي منها ترك واجب الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى.

❁ ❁ ❁

المنارة السادسة

ضعف التأصيل وتأصيل الضعف

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه وبعد.

فإن الدعوة إلىٰ الله عز وجل عبادة عظيمة من أعظم العبادات التي يحبها الله عز وجل ويُتقَّرب بها إليه سبحانه.

ولكن شأنها شأن العبادات الأخرىٰ التي يشترط في قبولها عند الله تعالىٰ أن يكون فيها الإخلاص والمتابعة لما جاء به الرسول ﷺ وشرعه لأمته وهذا هو مفهوم التأصيل.

والناظر في واقع الدعوة اليوم وما أثمرته من صحوة عامة وعودة إلىٰ الدين والخير ومقارعة الفساد وأهله ليحمد الله عز وجل علىٰ هذه النعمة العظيمة ويشكر القائمين علىٰ هذه الدعوة من علماء وطلاب علم ودعاة وموجهين ومحسنين كلٌ في مهمته وحسب ما قدم، ويدعو لهم بالأجر الجزيل.

ومع هذا الخير العظيم الذي لا يماري فيه عاقل محب للخير فإن هناك أمرين خطيرين ينبغي أن ينتبه إليهما الدعاة المخلصون، لأنهما

طالما كانا معولي هدم للدعوات الصحيحة أو كانا أداتي نخر وإفساد للدعوات الناشئة في بنائها. وهذان الأمران هما:

(١) ضعف التأصيل و (٢) تأصيل الضعف.

والمقصود بضعف التأصيل: الانطلاق في أمور الدعوة ومناهجها وأساليبها دون الرجوع إلىٰ أصول الشريعة وما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم ودون الاهتمام بالمستند الشرعي والدليل العلمي لمنطلقات الدعوة ومناهجها والاكتفاء بآراء الرجال والتقليد الأعمىٰ أو القياسات العقلية دون تمحيص لهذه الآراء وهل هي توافق مقاصد الشريعة وأصول السيرة النبوية الطاهرة أم لا؟

إن تربية النشء علىٰ قدسية أقوال فلان من الناس وأنها الحق الذي لا مرية فيه منهج خاطئ منحرف ومثال واضح لضعف التأصيل أو انعدامه.

كما أن ربط الصحة والخطأ في أمور الدعوة بالعقل والذوق ورغبات الناس هي الأخرىٰ مثال لضعف التأصيل، والأمثلة كثيرة ليس المقام مقام تفصيل لها.. والمقصود أن ضعف التأصيل ظاهرة خطيرة تُرىٰ دائمًا وتظهر في أزمنة الجهل بالشريعة وضعف العلم الشرعي وترك الأخذ بالدليل الصحيح والاستعاضة عن ذلك بآراء الرجال وعقولهم وأهوائهم.

وعلاج هذا الانحراف يكمن في ربط الدعوة ومناهجها بالدليل ومقاصد الشريعة وقواعدها وإحياء العلم الشرعي بين الناس وأن لا عصمة إلا للرسول ﷺ.. وكل من عداه يؤخذ من قوله ويرد.. وإحقاقًا للحق فإن كثيراً من الدعوات اليوم ولله الحمد قد تبنّت منهج التأصيل والرجوع إلىٰ ما كان عليه سلف الأمة والاهتمام بالدليل وما ذاك إلا من انتشار العلم وكثرة طلابه والتفافهم علىٰ العلماء، وهذا يبشر بالخير إن شاء الله تعالىٰ وإن كان التأصيل الشامل يحتاج إلىٰ جهد كبير وتعاون عظيم بين العلماء والدعاة في ذلك.

أما الأمر الثاني فهو تأصيل الضعف

والمقصود بتأصيل الضعف هنا هو أن يقع الإنسان في ضعف أو خطإ ما وعوضًا عن الاعتراف بهذا الضعف ومحاولة النهوض منه ومعالجته تراه يتكلف الاستدلال لضعفه هذا ببعض الأدلة الشرعية التي لا تصلح للاستدلال. وقصده من هذا أن يظهر بمظهر المتقيد بالشرع وأنه ينطلق في مواقفه من أصول شرعية.

ولتوضيح هذه المسألة أضرب الأمثلة التالية.

(١) هناك من يسوِّغ كتم الحق بالخوف علىٰ النفس من الفتنة أو بالخوف علىٰ الناس من تبعات قول الحق وما يجر عليهم من المفاسد والفتن.

فإن كان من يقول هذا القول قد عرف عنه التقوىٰ والإخلاص والعلم بمقاصد الشريعة، فإنه والحالة هذه مسئول عما يقول وهو إن شاء الله تعالىٰ مأجور علىٰ اجتهاده، وليس هو ممن يلبس الحق بالباطل أو ممن يؤصل ضعفه ويبرّره بمبررات شرعية.

أما إن كان صاحب هذا القول ممن عرف عنه قلة الدين واللهث وراء الدنيا وعرف عنه كتم الحق خوفًا علىٰ دُنيا فانية، أو طمعًا في متاع زائل أو إيثارًا للراحة فإن موقفه والحالة هذه يُعد صورة من صور تأصيل الضعف ولبس الحق بالباطل، حيث أظهر طمعه وخوفه في صورة الحرص علىٰ مقاصد الشريعة ومراعاة المصالح والمفاسد والله سبحانه هو المطلع علىٰ ما في القلوب وهو علام الغيوب.

(٢) من المعلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل من أصول الشريعة لا يقوم إلا به، ولكن قد يتركه بعض الناس في بعض الظروف إما لمسوغ شرعي كتخلف بعض شروطه، أو لضعف وتخاذل مع بقاء هذه الشعيرة علىٰ أصلها في النفوس واعتراف التارك لها بالضعف والتقصير.

أما لو تحوّل الأمر بالمعروف النهي عن المنكر مع مرور الوقت وكثرة المنكرات وضعف الإيمان إلىٰ أن يصبح السكوت وترك الأمر والنهي هو الأصل الذي يبحث له عن المسوغات الشرعية كدرء الفتنة ونحوها ثم

يتحول الأمر والنهي إلىٰ حالة استثنائية لا يقام به إلا عند توفر الشروط التي تضخم لتصبح أقرب إلىٰ التعجيز منها إلىٰ الإمكان.

إنه إذا آل الأمر إلىٰ هذه الحالة فإن هذا هو عين التلبيس وهو تأصيل الضعف حيث انعكس الأمر فأصبح السكوت والضعف عن هذه الشعيرة العظيمة هو الأصل وما خالفه من الأمر والنهي هو المستثنىٰ، ونعوذ بالله من الخذلان.

(٣) من المعلوم أن البراءة من المشركين الكفار أصل عظيم من أصول العقيدة لا يصح إيمان العبد إلا بها. وقد يمر بالمسلم وقت لا يستطيع أن يجاهر بعداوته للكفار، وقد يداريهم في الظاهر وقلبه ممتلئ ببغضهم والبراءة منهم.

لكن الخطير في هذا الأمر أن يستمرئ الناس مداراة الكفار في كل حين حتىٰ يتحوّل الأمر إلىٰ مداهنة وموالاة وحتىٰ يؤول في النهاية إلىٰ أن تؤصل المداهنة الناشئة عن ضعف الإيمان وحب الدنيا ووهن العزيمة، وتصبح هي الأصل وما خالفها طارئ ومستثنىٰ لا يعارض به الأصل. كمن يؤصل اليوم التسامح الديني وتقارب الأديان بحجة المصلحة الشرعية ونبذ التعصب.

ومثله ما يراد للأمة الإسلامية في السنوات الأخيرة من استسلام مهين مع شرذمة الخليقة وأعداء الرسل اليهود الغاصبين، حيث تحوّل

الجهاد في سبيل الله تعالىٰ ومعاداة اليهود والنصارىٰ إلىٰ أمر مستغرب بل ومستنكر أحيانًا، وأصبح التنازل عن هذا كله هو الأصل الذي لا يجوز خرمه، كما أصبح التعايش السلمي واحترام حدود العدو والسلام الدائم معه واحترام الشرعية الدولية هي الأصول التي لا يسمح بالتنازل عنها والخروج عليها. وقد أدىٰ هذا الأمر إلىٰ أن يوجد في بعض بلاد المسلمين من يحشد الأدلة والشبهات لتأصيل هذا الخنوع وإضفاء الشرعية للسلام الدائم مع اليهود. وهل بعد ذلك مثال أوضح من هذا في تأصيل الضعف والهزيمة والهوان.

❁ ❁ ❁

المنارة السابعة

التدرج في الإصلاح والدعوة إلى الله عز وجل

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه وبعد.

أورد صاحب الحلية رحمه الله تعالى في كتابه القصة التالية: «دخل عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز علىٰ أبيه عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة فأخلني - وعنده مسلمة بن عبد الملك - فقال له عمر: أسِرٌّ دون عمك؟ فقال: نعم، فقام مسلمة وخرج وجلس بين يديه فقال له: يا أمير المؤمنين ما أنت قائل لربك غداً إذا سألك فقال رأيت بدعة فلم تمتها، أو سنة لم تحيها؟

فقال له: يا بني أشيء حملتكه الرعية إليَّ، أم رأي رأيته من قبل نفسك؟ قال: لا والله، ولكن رأي رأيته من قبل نفسي، وعرفت أنك مسئول فما أنت قائل؟ فقال أبوه: رحمك الله وجزاك من ولد خيراً، فو الله إني لأرجو أن تكون من الأعوان علىٰ الخير، يا بني إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة، ومتىٰ ما أريد مكابرتهم علىٰ انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليَّ فتقًا تكثر فيه الدماء

والله لزوال الدنيا أهون عليَّ من أن يهراق في سببي محجمة من دم، أو ما ترضىٰ أن لا يأتي علىٰ أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيي فيه سنة، حتىٰ يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين»(١).

وبعد هذا الحوار الجميل الحكيم بين خليفة المسلمين العادل وابنه الورع الزاهد رحمهما الله تعالىٰ يمكن لنا تسجيل الدروس التالية:

(١) دور البطانة الصالحة للحاكم المسلم وبخاصة إذا كانت من قرابته، كما هو ظاهر في نصح هذا الابن البار المشفق لأبيه الخليفة العادل، وهذا من علامة توفيق الله عز وجل للحاكم المسلم.

ولكن متىٰ يظهر أثر البطانة الصالحة؟

إنها لا تظهر إلا إذا وجد الاستعداد الصادق عند الحاكم، بحيث يظهر عليه حب أهل الخير والسعي إلىٰ تقريبهم، وبغض أهل الشر والنفاق والنفور منهم.

أما إذا وجد العكس من ذلك فإن الأثر سيكون ضعيفًا بل معدومًا، وحينئذ يُنصح أهل العلم والخير بالابتعاد عن مثل هؤلاء الحكام لعدم الفائدة أو الخوف من الأكدار والمحاذير التي يتلوث بها في العادة من

---

(١) حلية الأولياء ٥/٢٨٣.

يقف علىٰ أبواب السلاطين الظلمة إلا من أراد النصح والإنكار وإقامة الحجة ولم يخش علىٰ نفسه الميل إلىٰ دنياهم والمداهنة لهم فله ذلك وكل أعلم بنفسه والسلامة لا يعدلها شيء.

(٢) التماس العذر لمن تمكن من أهل الخير في عدم الإصلاح السريع وتغيير كل الفساد الذي يقوم به من تحت ولايتهم، ويكفينا أن نرىٰ السعي الجاد للتغيير من قبلهم، وأن نرىٰ الخير يزداد والشر يتناقص يومًا بعد يوم ولو كان ذلك قليلاً.

وهذا الكلام يسري من باب أولىٰ علىٰ من تولىٰ من أهل الخير الحكم في بلد من بلدان المسلمين وأراد صادقًا أن يحكم بشريعة الله عز وجل وأن يحارب الفساد العظيم في مرافق الحياة الذي ورثه من سابقه، فهنا يجب أن نطبق ما قاله عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لابنه حينما طالبه بالتغيير السريع الشامل، ويلتمس العذر فيما يقوم به الحاكم الصادق من التغيير المتدرج، ويكفي أن نلمس الصدق والإرادة الجازمة منه في التغيير، وأوضح القرائن علىٰ ذلك الصدق في العزيمة والبدء في إبعاد البطانة الفاسدة عن مواقع التأثير، وتقريب البطانة الصالحة أما أن يبقىٰ أهل السوء والفساد في مواقعهم وأهل الصلاح بعيدون. فإن هذا يدل علىٰ عدم المصداقية فيما يعلن من تحكيم الشريعة، وإنما هو للاستهلاك وكسب عواطف المسلمين.

وهذا يذكرنا بما نسمعه ما بين الفينة والأخرىٰ من أن حاكم البلد الفلاني قد أعلن تطبيق الشريعة وتحكيمها فيغتر بهذا الادعاء من يغتر من المسلمين، مع أن القرائن تدل علىٰ كذبه ونفاقه وذلك لأنه لو كان صادقًا لبدأ أول خطوة في التغيير ألا وهي تغيير البطانة الفاسدة، وإبدالها ببطانة صالحة تستلم مواقع التغيير، وبعدها يلتمس العذر له في التدرج وعدم العجلة في التغيير أما أن يبقىٰ أهل الشر في تسلطهم، وأهل الخير مبعدون أو مغيبون في السجون، والشر والفساد في زيادة واستفحال، وهو أبعد ما يكون عن الإسلام فإن هذا لا يجدي شيئًا وإنما هو مجرد نفاق ولعب علىٰ جهلة المسلمين ومغفليهم، ورحم الله عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال: « لست بالخبِّ ولا الخبُّ يخدعني ».

(٣) التدرج في دعوة الناس وعدم مطالبتهم بالتغيير السريع في أنفسهم وذلك مما ألفوه وتلبسوا به دهراً طويلاً من الزمان من المنكرات والمخالفات وضرورة أخذهم بالرفق والبدء بالأهم فالمهم.

ومما يدخل في ذلك ما ينبغي أن يقوم به المربون في تربيتهم لأولادهم وطلابهم، وأن لا يطالبوهم في بداية تربيتهم ما يطالبون به أنفسهم أو من أمضىٰ سنوات في التربية والتزكية، ولذلك قيل: علىٰ الزاهد أن لا يجعل زهده عذابًا علىٰ أهله وإخوانه.

ومما يلحق بذلك أيضًا التدرج في دعوة الداخلين في الإسلام حديثًا، وأن يبدأ معهم بالأهم وهو توحيد الله عز وجل وبيان ما يضاده من الشرك بجميع أنواعه ثم إعلامهم بواجبات الإسلام العينية ومنهياته.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: « ... كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه ويؤمر بها كلها. وكذلك التائب من الذنوب والمتعلم والمسترشد، لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين ويذكر له جميع العلم فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجبًا عليه في هذه الحال »(١).

ولا يعني هذا التسويف واتخاذ التدرج وسيلة للإبطاء بالالتزام بأحكام الله تعالىٰ وتطبيق شرعه، بل المقصود الرفق بالمدعو وأن يبدأ بالأهم الذي هو الأصل في النجاة من عذاب الله تعالىٰ إذ ما قيمة أن يصلي الداخل في الإسلام أو يحج أو يصوم وهو لايعرف التوحيد أو لايزال متلبسًا بما كان عليه في ديانته السابقة من شرك بالله تعالىٰ وكفر به.

❁ ❁ ❁

---

(١) مجموع الفتاوىٰ: ٢٠/ ٦٠.

والإسلام [illegible]

[illegible]

[illegible] والإسلام [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

المنارة الثامنة

الوسطية في الدعوة والتغيير بين الخوارج والمرجئة

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه وبعد.

فإن الوسطية سمة من سمات هذا الدين العظيم وصفة بارزة لأمة محمد ﷺ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾ الآية [البقرة: ١٤٣].

وعندما انحرف من انحرف من الفرق وأهل البدع عن هذه الوسطية التي كان عليها الرسول ﷺ وأصحابه الكرام، عصم الله عز جل أهل الحق الذين هم أتباع السلف من هذا التطرف ووفقهم للوسطية في جميع أمور دينهم العلمية والعملية، وكانوا في ذلك كله وسطًا بين طرفين متقابلين، طرف الغلو والإفراط وطرف التفريط والجفا، وصارت كل فرقة من الفرق الضالة تتبوأ طرفًا من هذين الطرفين حسب نوع الانحراف الحاصل وفي أي الأبواب هو.

ومن هذه الأبواب التي انحرف فيها من انحرف من أهل البدع ولم يوفق للحق والوسطية فيها هو باب الأمر بالمعروف النهي عن المنكر

والدعوة والتغيير، وقد هدىٰ الله عز وجل أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح لما اختلف فيه أهل البدع من الحق ورزقهم الوسطية في هذا الباب العظيم والأصل الأصيل من أصول الدين فلم ينحرفوا فيه إلىٰ الغلو والإفراط كما فعلت الخوارج ولم يذهبوا فيه إلىٰ الجفاء والتفريط كما فعلت المرجئة.

وحتىٰ تتضح هذه المسألة فلا بد من عرض رأىٰ الطرفين المنحرفين في هذا الباب ليتبين الوسط بينهما إن شاء الله تعالى.

الطرف الأول: الغلاة وهم طرف الخوارج الذين يرون أن قتال أئمة الجور ومن والاهم من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنهم فعلوا الظلم أو ما ظنوه ظلمًا وهذا عندهم كفر مخرج من الملة.

الطرف الثاني: أهل التفريط وهم طرف المرجئة وأهل الفجور الذين يرون ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظنًّا منهم أن ذلك من باب ترك الفتنة، ومعلوم ما في هذا المذهب من الفتنة والفساد.

وعن هذين الطرفين يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «ونهى رسول الله ﷺ عن قتال أئمة الجور وأمر بالصبر علىٰ جورهم ونهىٰ عن القتال في الفتنة، فأهل البدع من الخوارج والمعتزلة والشيعة وغيرهم يرون قتالهم والخروج عليهم إذا فعلوا ما هو ظلم أو ما ظنوه هم ظلمًا، ويرون ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وآخرون من

المرجئة وأهل الفجور قد يرون ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظنًّا أن ذلك من باب ترك الفتنة وهؤلاء يقابلون لأولئك»[١].

وبين هذين الطرفين يقف أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح من الصحابة والتابعين في الوسط بينهما، فلم يتركوا الأمر والنهي ومدافعة الفساد بحجة الخوف من الفتنة كما هو صنيع المرجئة وأهل الفجور، كما أنهم لم يدفعهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومدافعة الفساد إلىٰ الخروج علىٰ جماعة المسلمين وقتالهم كما هو صنيع أهل الغلو من الخوارج والمعتزلة ومن شابههم.

وعن هذه الوسطية يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: « . . . ومع ذلك فيجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب إظهار السنة والشريعة، والنهي عن البدعة والضلالة بحسب الإمكان، كما دل علىٰ وجود ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

وكثير من الناس قد يرىٰ تعارض الشريعة في ذلك فيرىٰ أن الأمر والنهي لايقوم إلا بفتنة فإما أن يؤمر بهما جميعًا أو ينهىٰ عنهما جميعًا، وليس كذلك، بل يؤمر وينهىٰ ويصبر عن الفتنة، كما قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: ١٧].

(١) الآداب الشرعية ١/ ١٧٧.

وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : (بايعنا رسول الله ﷺ علىٰ السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيث ماكنا، لا نخاف في الله لومة لائم »[١]، فأمرهم بالطاعة ونهاهم عن منازعة الأمر أهله، وأمرهم بالقيام بالحق. ولأجل ما يظن من تعارض هذين تعرض الحيرة في ذلك لطوائف الناس. والحائر الذي لا يدري - لعدم ظهور الحق، وتمييز المفعول من المتروك - ما يفعل إما لخفاء الحق عليه أو لخفاء ما يناسب هواه عليه »[٢] أهـ.

مما سبق يتضح لنا أن من ترك الأمر والنهي والدعوة إلىٰ الله عز وجل ومدافعة الفساد بحجة اجتناب الفتنة فإن له نصيبًا وشبهًا بالمرجئة وأهل الفجور ومن نحا نحوهم ويلحق بهؤلاء من يتهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر المحذرين للأمة من الشرك والفساد بالخروج علىٰ الأمة وابتغاء الفتنة مع براءتهم من ذلك، إن هذا الصنيع من هؤلاء القاعدين والمثبطين المرجفين إنما هو عين الفتنة والفساد.

---

(١) البخاري ٩ /٤٧، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ (سترون بعدي أمورًا تنكرونها)؛ مسلم (١٤٧٠ - ١٤٧١) كتاب الإمارة.

(٢) الاستقامة ١ /٤١، ٤٢.

كما أن من خرج علىٰ الأمة بالسيف زاعمًا أن هذا من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن له أُسوة في سلفة من الخوارج والمعتزلة.

أسأل الله عز وجل أن يهدينا لما اختُلف فيه من الحق بإذنه إنه يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

* * *

المنارة التاسعة

فتنة المنافقين وأثرها علىٰ الدعوة

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه وبعد.

فلقد كانت فتنة المنافقين من أشد الفتن التي تعرض لها المسلمون في تاريخهم الطويل، ذلك لأنهم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر والزندقة، فينخدع الناس بظواهرهم ولا يأخذون حذرهم منهم مما يهيء للمنافقين الجو المناسب في المكر بالمسلمين والكيد لهم وهم لا يشعرون، وهذا بعكس الكافر الواضح حيث يؤخذ الحذر منه ويجاهد ولا يمكن له بين المسلمين.

لهذا كان خطر المنافقين في الصف المسلم أخطر بكثير من الكفار المجاهرين للمسلمين بالعداء، ولقد ظهر كيد المنافقين في عهد مبكر مع الرسول ﷺ في المدينة حيث عانىٰ منهم الرسول ﷺ والمسلمون الأمرين وذلك مما يثيرونه من البلابل والكيد والتخذيل... الخ.

وما موقف رأس المنافقين وتخذيله يوم أحد وكذلك إتيانه بالإفك علىٰ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، بخافٍ علىٰ أحد، ومن أجل

ذلك كان عذاب المنافقين أشد من الكفار .

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥].

ولقد جاءت آيات عديدة في فضحهم والتحذير من شرهم ومن أراد الوقوف علىٰ هذه الآيات فليقرأ صدر سورة البقرة وسورة التوبة وسورة المنافقين وغيرها.

ومن أوضح الآيات التي حذرت من شرهم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ١١٨].

وكذلك ما وصفهم به فيٰ قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة: ٩].

وإن أثر المنافقين لم يتوقف علىٰ عهد الرسول ﷺ بل كان ممتداً طيلة التاريخ الإسلامي مروراً بدورهم في قتل الفاروق رضي الله عنه وما تلا ذلك من الفتن الطاحنة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه حيث كان الباطنيون المنافقون هم من وراء ذلك كله كما أنهم كانوا هم الذين حرضوا التتار المغول في اجتياح عاصمة الخلافة الإسلامية في ذلك الوقت، وكانوا بطانة سوء للخليفة العباسي فمهدوا لهذه المأساة العظيمة التي لم يع

علىٰ المسلمين مثلها في الذل وكثرة القتلىٰ حتىٰ قال المؤرخ ابن الأثير وهو يرويها: ياليت أمي لم تلدني. هذا وهو لم يشهد هذه الفواجع العظيمة بل ها له مجرد سماعها.

واستمر أثر المنافقين حتىٰ ظهر في عصرنا الحاضر بأشكال وأنماط خبيثة ماكرة لم يسبق لها نظير حتىٰ خيف علىٰ خاصة المسلمين ودعاتهم وعلمائهم من الانخداع بها فضلاً عن عامتهم وجهلتهم، وفيما يلي ذكر بعض هذه المكائد لعلنا نحذرها ونقطع الطريق علىٰ أهلها.

(١) ما يقوم به الباطنيون الرافضة من نفاق وخداع لبعض من يجهل عقيدتهم وتاريخهم من أبناء المسلمين، وذلك بما يظهرونه من حب خادع لأهل السنة أوأنهم تخلوا عن عقائدهم الباطلة من سب الصحابة وقولهم بتحريف القرآن وادعاء العصمة لأئمتهم... الخ.

وهذا كله تقية ونفاق ليحققوا من خلاله امتصاص العداء الذي يكنه الموحدون لهم ويكسبوا عواطف المسلمين بهذا الخداع، وهذا واضح بما تتبناه دولة الرافضة اليوم من تقارب مع أهل السنة جماعات وأفرادا، ومما يزيد الأمر فتنة وخطراً انخداع بعض أهل السنة بما يظهرونه من تأييد لبعض القضايا الإسلامية السُّنية كالقضية الجهادية في فلسطين ، ووقوف الحزب الشيعي المسمىٰ (حزب الله) أمام اليهود

في الجنوب اللبناني وصموده أمامهم، في وقت تخاذل فيه أكثر المسلمين أمام اليهود واستسلموا للسلام المهين، وهذا فتنة بلا شك[١].

ولكن كل هذه الأمور لا يصح أن تنطلي علىٰ المسلم الواعي بعقيدته وعقيدة الرافضة، وذلك أنهم لم يغيروا من عقيدتهم شيئاً، وإنما هذا هو شأنهم في كل وقت يشعرون فيه بمنابذة الناس لهم، وهم ينتظرون اليوم الذي يتمكنون فيه فيعلنون فيه عقائدهم الباطنية ولا يرقبون بعد ذلك في مؤمن لا يوافقهم إلاً ولا ذمة ، فخذوا حذركم أيها المسلمون وإن أخطر ما في هذا النفاق أن يوجد من بعض الحركات الجهادية والجماعات الإسلامية من ينخدع بهم ويدخل في تحالفات معهم أو يقبل المعونات منهم، وفي هذا خطر علىٰ مستقبل الدعوة والجهاد واحتواء المنافقين لهم وحرفهم لمسيرتها.

(٢) ومن صور الخداع والتلبيس التي قد ينخدع بها بعض السذج من الناس ويسقطون في فتنتها: ما يرفعه المنافقون في أكثر بلدان المسلمين في وجه أهل الخير والإصلاح من أنهم دعاة شر وإرهاب وفساد، وما تجلبه وسائل الإعلام المختلفة وتدندن به علىٰ وصفهم

---

(١) انظر مقالات (حزب الله رؤية مغايرة)، المنشور في مجلة البيان العدد ١٤٢ وما بعده، للأستاذ: عبد المنعم شفيق، ليظهر لك الوجه الآخر لعلاقة حزب الله باليهود وحقيقة المعركة بينهما.

ورميهم بهذه الأوصاف الظالمة حتى تأثرت بذلك بعض الأدمغة المخدوعة، فسقطت في فتنتهم، ورددت معهم هذا الظلم والخداع، وبالتالي تعرض أهل الخير للأذى والنكال باسم المصلحة الشرعية ومكافحة الإرهاب والفساد؛ وذلك بعد أن تهيأت أذهان المخدوعين من المسلمين لهذا الخداع والتلبيس.

(٣) اهتمام الحكومات العلمانية ببعض المناسبات الإسلامية كالاحتفال بمولد الرسول وهجرته ﷺ، أو ليلة النصف من شعبان، أو الإسراء والمعراج... إلى آخر هذه المناسبات التي لا أصل للاحتفال بها شرعًا وإنما هي من البدع المحرمة؛ ومع ذلك ينخدع بهذا التلبيس كثير من دهماء المسلمين، وتتحسن صورة أولئك المنافقين الذين يضللون الناس بهذا الخداع ويبدون في أعين المخدوعين أنهم يحبون الإسلام ويغارون عليه وهم أبعد ما يكونون عن الإسلام وأهله، وهل يحب الإسلام ويعتز بالانتماء إليه من يرفض الحكم به والتحاكم إليه ويبدل شرع الله المطهر بنحاتات الأفكار وزبالات الأذهان الجاهلة الظالمة؟ لا، والله! إن مثل هذا يكذب في ادعائه حبَّ دين الإسلام؛ قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾**﴾ [آل عمران: ٣١]، فهل يعي هذا المخدوعون المضلَّلون؟

ومما يدخل في هذه الصورة أيضًا من صور التلبيس ما يقوم بـ
بعض المنافقين المحادِّين لشرع الله – عز وجل – من إقامة بعض المؤتمرا
أو الندوات الإسلامية، ويدعون إليها بعض العلماء والدعاة فيستجيـ
من يستجيب، ويرفض من يرفض، وكل هذا من ذر الرماد في العيو
وتخدير دعاة المسلمين بمثل هذه الصروح الخبيثة التي هي أشبه
تكون بمسجد الضرار الذي بناه المنافقون في عهد الرسول ﷺ، وادعو
أنه للصلاة وإيواء المسافرين في الليلة الشاتية المطيرة، فأكذبهم الـ
– عز وجل – وفضح نياتهم بقرآن يتلىٰ إلىٰ قيام الساعة نهىٰ فـ
الرسول ﷺ عن دخوله والقيام فيه بل أمر بتحريقه قال تعالى
﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِـ
حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُـ
لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ
تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾

[التوبة: ١٠٧، ١٠٨

فهل آن الأوان أن نعي مثل هذه الفتنة والخداع فلا نستجيب لـ
هذه الدعوات، ولا نقوم في مثل هذه المؤتمرات أبداً؟ بل قد آن الأو
إلىٰ أن تفضح مثل هذه اللافتات ويحذر الناس من شرها والوقوع
فتنتها؛ ويبين لهم أنها ضرب من الخداع وصورة من صور النفاق المـ
الخبيث.

٤ ـ إظهارهم لفسادهم بمظهر الإصلاح وإرادة الخير بالأمة كما قال الله عز وجل عنهم: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ** ﴾ [البقرة: ١١].

يقول سيد قطب – رحمه الله تعالىٰ – عن هذه الآية:

(إنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع، بل يضيفون إليهما السفه والادعاء: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ** ﴾.. لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد، بل تجاوزوه إلىٰ التبجح والتبرير: ﴿ **قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ** ﴾. والذين يفسدون أشنع الفساد، ويقولون: إنهم مصلحون، كثيرون جداً في كل زمان. يقولونها؛ لأن الموازين مختلة في أيديهم؛ ومتىٰ اختل ميزان الإخلاص والتجرد في النفس اختلت سائر الموازين والقيم، والذين لا يخلصون سريرتهم لله يتعذر أن يشعروا بفساد أعمالهم؛ لأن ميزان الخير والشر والصلاح والفساد في نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية، ولا يثوب إلىٰ قاعدة ربانية)[1].ا.هـ.

ومما يدخل في هذه الصورة من صور الخداع والتلبيس ما يستخدمه منافقو زماننا من تحريف لنصوص الشريعة وتأويلات باطلة لها في تسويغ فسادهم ومواقفهم الجائرة؛ فهم مع جهلهم بأحوال

---

(١) في ظلال القرآن عند الآية (١١) من سورة البقرة.

الشريعة نراهم يخوضون فيها بلا علم إلا ما أشربوا من أهوائهم؛ فنراهم يسوِّغون الترخص بل التحلل من الشريعة بقواعد التيسير ورفع الحرج، وتغير الفتوىٰ بتغير الحال والزمان.. إلىٰ آخر هذه القواعد التي هي حق في ذاتها لكنهم خاضوا فيها بجهل وهوىٰ فاستخدموها في غير محلها، فهي حق أريد بها باطل. ومع جهلهم بالشريعة وظهور القرائن التي تدل علىٰ خبث طويتهم إلا أن هناك من ينخدع بهذه الشبه والتحريفات الباطلة؛ ومن عجيب أمر القوم أنهم يرفضون الحكم بما أنزل الله – عز وجل – والتحاكم إليه، ولا يذعنون له، ومع ذلك نراهم في أحيان قليلة يرجعون إلىٰ بعض الأدلة الشرعية ليمرروا ويبرروا من خلالها بعض فسادهم أو مواقفهم الباطلة؛ فما حاجتهم إلىٰ الشرع في هذه المرة وهم كانوا يكفرون به من قبل؟ إنه الهوىٰ والخداع والتلبيس علىٰ الناس قال تعالىٰ في فضح هذا الصنف من الناس: ﴿ **وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [النور: ٤٨ – ٥٠].

فينبغي لكل مسلم أن يحذر من شبه المنافقين وخداعهم وأن يقول لهؤلاء الذين يسوِّغون فسادهم بتحريف الأدلة الشرعية: ادخلوا في السلم كافة، وحكِّموا في الناس شرع الله – عز وجل – وارفضوا ما سواه؛ أما أن تنحُّوا شرع الله – عز وجل – عن الحكم حتىٰ إذا كان

لكم هوىٰ في تمرير فسادكم بشبهة دليل رجعتم إليه؛ فهذا الذي قال الله - عز وجل - عن أهله: ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة: ٨٥].

٥- خداعهم لبعض المتحمسين لشرع الله وتطبيقه؛ وذلك بدعوتهم إلىٰ مشاركات وطنية ومجالس نيابية يتعاون الجميع فيها علىٰ ما فيه صالح الوطن والمواطن كما زعموا! فيستجيب بعض الدعاة لهذا، وتجمعهم مع المنافقين الرافضين لشرع الله - عز وجل - مظلة واحدة، فيعرض الإسلاميون فيها مطالبهم كما يعرض العلمانيون والرافضة والشيوعيون مطالبهم الكفرية؛ ومعلومٌ ما في ذلك من مداهنة وتعاون علىٰ الإثم والعدوان، واستجابة لداعي الخداع والتلبيس الذي يتولىٰ كبره المنافقون الذين يريدون من استجابة الإسلاميين لهم إضفاء صفة الشرعية علىٰ مجالسهم ونظمهم التي يحكمون بها؛ وبالتالي يتخدر الناس ويستنيم المطالبون بتحكيم شرع الله - عز وجل - ما دام أن للمسلمين صوتاً في هذه المجالس النفاقية الماكرة، ويا ليت أن هناك مصلحة قطعية يمكن تحقيقها للمسلمين تربو علىٰ المفاسد التي تنشأ من المشاركة، إذن لهان الخطب؛ لكن الحاصل من هذه التجارب هو العكس؛ حيث إن المستفيد الأول والأخير هم العلمانيون المنافقون. وقد لا يكون المشارك من المسلمين غافلاً عن هذا

الخداع، ولكنه يدخل بغرض إقامة الحجة والدعوة إلىٰ تطبيق الشريعة ومعارضة كل ما يخالفها، ولكن هل هذا ممكن؟ وهل يسمح أهل الكفر والنفاق بذلك؟!!

الذي يغلب علىٰ الظن أن أعداء الشريعة لن يسمحوا إلا بالكلام فقط؛ وإذا تجاوز الإسلاميون ذلك إلىٰ العمل، وتجاوزوا الخطوط الحمراء المرسومة لهم جاء دور الحديد والنار؛ وما تجربة الجزائر وتركيا عنا ببعيدتين.

٦ ـ فتنة المنافقين داخل الصف الإسلامي:

وهذا شأن المنافقين في كل زمان؛ فعندما تخفق جهودهم في الوقوف في وجه أهل الخير والصلاح، وعندما ينشط الدعاة ويظهر أثرهم في الأمة؛ فإن المنافقين يلجأون إلىٰ وسيلة ماكرة وفتنة شديدة ألا وهي التظاهر بالحماس للدعوة والدخول في أوساط الدعاة مظهرين التنسك والغيرة علىٰ الدين، والحرص علىٰ العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتىٰ ينخدع بكلامهم المعسول بعض الطيبين من الدعاة، فتحصل الثقة بهم حتىٰ إذا تمكنوا من مراكز التوجيه والدعوة بدأوا فتنتهم الكبرىٰ علىٰ الدعوة وأهلها؛ مع استمرارهم في إظهار الخير والحماس لهذا الدين وتسويغ ما يقومون به من الممارسات بالحرص علىٰ مصلحة الدعوة وتميزها وصلابتها.

ومن أخطر صور الفتن التي تنشأ من هذا الصنيع ما يلي:

أ ـ فتنة التفريق وإثارة العداوات بين دعاة الإسلام:

وهذه من أعظم فتن المنافقين داخل الصف الإسلامي وفي أوساط الدعوة إلىٰ الله - عز وجل - وقد فضح الله - عز وجل - المنافقين الذين بنوا مسجد الضرار، وأظهر أهدافهم الخبيثة بقوله سبحانه: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧] قال المفسرون لهذه الآية: (لأنهم كانوا جميعاً يصلون في مسجد قباء؛ فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم فيؤدي ذلك إلىٰ الخلاف وافتراق الكلمة)[١] ا.هـ.

وهذا الضرب من الفتن لا يحتاج إلىٰ تدليل فالواقع المر شاهد بذلك، ومع أن للافتراق أسباباً كثيرة كالجهل والهوى... إلخ؛ إلا أن أثر المنافقين الذين يدخلون في صفوف الدعاة لا يجوز إغفاله والتهوين من شأنه، وكون الفرقة تحصل بين أهل طريقتين مختلفتين في الأصول، فإن هذا الأمر واضح ومعقول ومقبول. أما أن يفترق أهل الطريقة الواحدة - طريقة أهل السنة والجماعة وطريقة سلف الأمة - فهذا أمر لا يعقل ولا يقبل، ولا يكون إلا وهناك يد خبيثة خفية وراء هذا الافتراق؛ فينبغي علىٰ الدعاة الحذر من هذه الأيدي والتفتيش عنها

---

(١) تفسير البغوي ٤/٩٣ ط. دار طيبة.

وفضحها وتطهير الصف المسلم منها.

ب ـ فتنة التخذيل والتشكيك:

وهذه أيضاً من أعمال المنافقين المندسين في الصف المسلم حين يسعون إلىٰ بث فتنة التخذيل وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك بدعاوىٰ وشبه شرعية خادعة مؤداها توهين عزائم الدعاة وإضعاف هممهم، وبث الخوف في النفوس من الباطل وأهله، وتهويل قوة الأعداء وخططهم بصورة تبث اليأس في النفوس الضعيفة.

ج ـ فتنة الإيقاع بالدعوة والدعاة:

لا تقف مساعي المنافقين في إيصال الشر والأذىٰ للدعوة وأهلها عند حد. فمن هذه المساعي الخبيثة التي يقومون بها داخل صفوف الدعاة بعد إظهار الحماس وبعد كسب الثقة والسماع لأقوالهم كما قال تعالى: ﴿**وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ**﴾ [المنافقون: ٤] وتحت ستار الغيرة علىٰ الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله عز وجل ـ فإنهم يبدأون في دفع بعض الدعاة إلىٰ مواجهات مع الباطل وأهله والزج بالدعوة في أعمال خطيرة تفتقد المستند الشرعي من جهة، وتؤدي بالدعوة وأهلها إلىٰ الضمور والانكماش من جهة أخرى إن لم يُقض عليها قضاءً مبرماً. وهذا هو ما يريده المنافقون المخادعون الذين قال الله ـ عز وجل ـ عن أمثالهم: ﴿**لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ**

خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧]. يقول الإمام البغوي – رحمه الله تعالىٰ – عند تفسير هذه الآية:

﴿لَوْ خَرَجُوا﴾ يعني المنافقين ﴿فِيكُم﴾ أي معكم، ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾، أي: فسادًا وشرًّا. ومعنىٰ الفساد: إيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر، ﴿وَلأَوْضَعُوا﴾، أسرعوا، ﴿خِلالَكُمْ﴾، وسطكم بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم بالنميمة، ونقل الحديث من البعض إلىٰ البعض. وقيل: ﴿وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ﴾ أي: أسرعوا فيما يخلُّ بكم. ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾، أي: يطلبون لكم ما تفتنون به، يقولون: لقد جُمع لكم كذا وكذا، وإنكم مهزومون، وسيظهر عليكم عدوكم ونحو ذلك. وقال الكلبي: يبغونكم الفتنة يعني: العيب والشر. وقال الضحاك: الفتنة الشرك، ويقال: بغيته الشر والخير أبغيه بُغاءً إذا التمسته له، يعني: بغيت له.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، قال مجاهد: معناه وفيكم محبون لهم يؤدون إليهم ما يسمعون منكم، وهم الجواسيس. وقال قتادة: معناه وفيكم مطيعون لهم، أي: يسمعون كلامهم ويطيعونهم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[1]. ا.هـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) تفسير البغوي ٤/٥٦ ط. دار طيبة.

[illegible]

المنارة العاشرة

المفهوم الصحيح للصبر ومتى يكون نافعًا للداعية

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه وبعد.

فإن الابتلاء سنة من سنن الله عز وجل في عباده بل إن الله تعالىٰ لم يخلق العباد إلا ليبلوهم ويختبر إيمانهم.

قال تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** ﴿٢﴾﴾ [الملك: ٢].

ومن رحمة الله عز وجل بعباده أن خلق فيهم ما يدافعون به البلاء، وحثهم علىٰ التخلق به، ووفق من شاء من عباده إلىٰ التحلي بهذا الخلق العظيم ألا وهو الصبر، الذي لا يستطيع العبد أن يفعل ما أُمِرَ به ويترك ما نُهِيَ عنه ويصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة إلا به.

ويتفاوت الناس تفاوتا عظيمًا في التحلي بهذا الخلق الكريم ما بين الضعف والقوة، وبه يتباين إيمان الناس وثباتهم لأن الناس في الرخاء سواء، ولكنهم يتباينون في الشدة حسب قوة الصبر وضعفه في قلوبهم.

والصبر وإن كان لا غنىٰ عنه لعبد كائنًا من كان حتىٰ يصح إسلامه لله عز وجل بامتثال أوامره واجتناب نواهيه والصبر علىٰ أقداره المؤلمة لكنه في حق الدعاة والمجاهدين في سبيل الله عز وجل أشد حاجة وآكد في حقهم من غيرهم وذلك لما يتعرضون له من بلاء ومحنة وصد عن سبيل الله عز وجل من قبل الظالمين وأعداء الدين، وعندما نتحدث عن الصبر الممدوح صاحبه فإنا نتحدث عن الصبر الاختياري الذي يمنع صاحبه من التسخط والجزع ويمنح صاحبه الرضىٰ والاطمئنان، وهذا هو الصبر الذي يثاب عليه العبد ويصدق عليه قول الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

ولا ينافي هذا مدافعة أقدار الله عز وجل بأقداره التي أذن بها لعباده.

والصبر كغيره من الأخلاق يكتنفه خلقان ذميمان والممدوح منه وسط بينهما، فهو وسط بين طرفين: طرف التفريط المؤدي إلىٰ الضعف والذلة والمهانة والجزع والتسخط، وطرف الإفراط المؤدي إلىٰ القسوة والتهور العجلة في الأمور قبل أوانها وفي الوسط بينهما يقع الصابر المستقيم الذي لم تدفعه المصائب والابتلاءات إلىٰ الضعف والخور والجزع، وفي المقابل لم تدفعه بضغوطها وشدتها إلىٰ العجلة والتهور والقسوة المخالفة لقواعد الشريعة ومقاصدها.

وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: « .. وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين وهو وسط بينهما. وطرفاه خلقان ذميمان... فإن النفس متىٰ انحرفت عن التوسط انحرفت إلىٰ أحد الخلقين الذميمين ولابد.. فإذا انحرفت عن خلق «الصبر المحمود» انحرفت إما إلىٰ جزع وهلع وجشع وتسخط، وإما إلىٰ غلظة كبد، وقسوة قلب وتحجر طبع...»[1].

وهنا سؤال مهم يتعلق بالصبر، ألا وهو: متىٰ يكون الصبر نافعا لصاحبه، ولماذا يضعف صبر أكثر الناس ولا يثبت منهم إلا القليل؟

والجواب علىٰ هذه المسألة المهمة يمكن أن نفهمه من الكلام التالي للإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ حيث يقول: (وهو - أي الصبر - علىٰ ثلاثة أنواع: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

فالأول: الاستعانة به، ورؤيته أنه هو المصَبِّر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه، كما قال تعالىٰ ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ**﴾ [النحل: ١٢٧] يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر.

والثاني: الصبر لله. وهو أن يكون الباعث له علىٰ الصبر محبة الله، وإرادة وجهه، والتقرب إليه. لا لإظهار قوة النفس، والاستحماد إلىٰ الخلق، وغير ذلك من الأعراض.

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣١٠ (باختصار).

والثالث: الصبر مع الله، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه ومع أحكامه الدينية. صابراً نفسه معها، سائراً بسيرها. مقيماً بإقامتها. يتوجه معها أين توجهت ركائبها. وينزل معها أين استَقَلَّت مضاربها.

فهذا معنىٰ كونه صابراً مع الله، أي قد جعل نفسه وقفاً علىٰ أوامره ومحابه. وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها. وهو صبر الصديقين)[1] أ.هـ.

من هذا النقل النفيس يتبين لنا أنه لكي يستقيم العبد في صبره ويثبت ولا يميل عن الصبر الممدوح ذات اليمين أوذات الشمال فلا بد من شروط ثلاثة يجب أن تتوفر في الأمر المصبور عليه حتىٰ يثبت العبد ويفوز بأجر الصابرين.

وما خذل عبد في أمر من الأمور وضعف ثباته وصبره فيه إلا بتخلف واحد أو أكثر من هذه الشروط، وملخصها - كما سبق - ما يلي:

١- أن يكون الصبر بالله تعالىٰ وذلك بالتبرؤ من الحول والقوة والاعتراف بالضعف والضياع فيما لو وكل العبد إلىٰ نفسه، وهذا يؤكد الاستعانة التامة بالله عز وجل وأنه سبحانه هو المصبِّر ولولا

---

(١) مدارج السالكين ٢/١٥٧.

لم يصبر الصابرون ويثبت الثابتون. وفي هذا إشارة إلىٰ ضرورة الدعاء والتضرع لله عز وجل وسؤاله الصبر والثبات كما قال أصحاب موسىٰ عليه السلام: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٦].

٢- أن يكون الصبر لله عز وجل وابتغاء وجهه الكريم لا لغرض من أغراض الدنيا الفانية ولكن لإرادة الآخرة وتوفية الأجر من الله سبحانه هنالك.

٣- أن يكون الأمر المصبور عليه مرضيًا لله عز وجل وذلك بموافقته لما جاء به الرسول ﷺ.

* * *

[illegible]

[illegible]

[illegible]

* * *

[illegible]

المنارة الحادية عشرة

الاستقامة مفهومها وأحوالها

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه وبعد.

فلقد ورد ذكر الاستقامة في القرآن الكريم في مواطن كثيرة مرة بالأمر بها كما في قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ...**﴾ [هود: ١١٢].

ومرة بالثناء علىٰ أهلها وذكر ما أعد لهم من الخير والثواب كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف: ١٣].

وكما في قوله تعالى: ﴿**وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا** ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦].

ومرة بطلب الهداية إلىٰ الطريق المستقيم كما في قوله تعالى: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦].

كما جاء في السنة الحث علىٰ لزوم الاستقامة كما في قوله ﷺ:

﴿ قل آمنت بالله ثم استقم ﴾[١].

فما هو مفهوم الاستقامة وضابطها؟

إن الاستقامة في أبسط معانيها تعني لزوم الطريق المستقيم الذي اعوجاج فيه ولا ميل، ولا إفراط ولا تفريط.

وهذا لا يتأتىٰ إلا باتباع الرسول ﷺ والاستسلام لما جاء به من عز وجل وبالطريقة التي فهمها أصحابه رضي الله عنهم وساروا نهجها، والإخلاص لله عز وجل فيها.

ولا تكمل الاستقامة إلا بأمور أربعة:

الأمر الأول: معرفة طريقها والعلم بها واستبانتها بالدليل الشر الصحيح.

الأمر الثاني: العمل بها والتزام تطبيقها ظاهراً وباطناً.

الأمر الثالث: الدعوة إليها والتواصي بلزومها ومدافعة ما يضع ويعيقها.

الأمـــر الرابع: الثبات عليها والصبر علىٰ لزومها ومدافع يضادها حتىٰ الممات دون زيادة ولا نقصان.

ولو تأملنا هذه الأمور الأربعة لرأيناها هي المذكورة في سورة الع

---

(١) مسلم جـ ٢ ص٨ باب جامع أوصاف الإسلام (كتاب الإيمان).

والتي هي مقومات الاستقامة وبالتالي هي أسباب الفوز والنجاة من الخسران، فمن كملها كلها فقد كملت استقامته ومن لم يكملها نقصت استقامته بحسب ذلك.

ولا يصدق وصف الاستقامة علىٰ عبد إلا بتحقيق أمرين كبيرين.

الأمـــر الأول: الاستقامة علىٰ أمر الله عز وجل ظاهراً وباطناً بالإخلاص لله تعالىٰ ومتابعة لرسول الله ﷺ في ذلك دون إفراط ولا تفريط ولا جفاء ولا غلو.

الأمر الثاني: الثبات علىٰ هذا الأمر وعدم اتباع السبل والصبر علىٰ لزومه حتىٰ الممات.

ونظراً لأهمية التوسط بين الإفراط والتفريط في تحقيق الاستقامة فإنه لا بد من تفصيل القول في هذا الضابط وذلك لأن كثيراً ممن يتحدث عن الاستقامة لا يتطرق إلىٰ أهمية التوسط في تحقيق وصف الاستقامة، وإنما يقصر أكثر الحديث عنها علىٰ لزوم طاعة الله عز وجل وعدم التقصير فيها والاستمرار علىٰ ذلك إلىٰ الموت.

وقليل منهم من يشير إلىٰ أن مما يضاد الاستقامة أيضاً الغلو والزيادة ولو كان بنية الطاعة والعبادة، فكما أن مما يقدح فىٰ الاستقامة التفريط وارتكاب المعاصي فكذلك مما يقدح فيها الزيادة والطغيان والغلو والإفراط.

قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ [هود: ١١٢].

ففهم من الآية أن الزيادة والطغيان مما يضاد الاستقامة وبناء على هذا الفهم الشامل للاستقامة فإن العبد مأمور بالاستقامة في دينه كله عقيدة وعبادة وسلوكًا، وأن يلزم الوسطية في كل أمور دينه ويحذر من الميل إلىٰ أحد الطرفين طرف التفريط والتقصير أو طرف الغلو والإفراط.

ولو تأملنا مذهب أهل السنة والجماعة لرأيناه رمز الاستقامة في أبواب الدين كله؛ فهم وسط في أبواب الاعتقاد بين الغالين والجافين وفي أبواب العبادات بين المبتدعين الزائدين فيها ما لم يأذن به الله عز وجل وبين المفرطين المضيعين لها من أهل الفساد والفجور، وكذلك في أبواب الأخلاق والسلوك فهم وسط في أخلاقهم بين الإفراط والتفريط إذ أن كل خلق محمود فهو مكتنف بخلقين ذميمين أحدهما غلو وإفراط والآخر تقصير وتفريط، وهذا ما يوضحه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ بقوله: «وكل خلق محمود مكتنَفٌ بخلقين ذميمين. وهو وسط بينهما. وطرفاه خلقان ذميمان، كالجود: الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير. والتواضع: الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة. والكبر والعلو.

فإن النفس متىٰ انحرفت عن «التوسط» انحرفت إلىٰ أحد الخلقين الذميمين ولابد، فإذا انحرفت عن خلق «التواضع» انحرفت إما إلىٰ كبر وعلو، وإما إلىٰ ذل ومهانة وحقارة.

وإذا انحرفت عن خلق «الحياء» انحرفت: إما إلىٰ قِحَة وجرأة وإما إلىٰ عجز وخور ومهانة... وإذا انحرفت عن خلق الحلم انحرفت إما إلىٰ الطيش والترف والحدة والخفة، وإما إلىٰ الذل والمهانة والحقارة... وإذا انحرفت عن خلق الأناة والرفق انحرفت إما إلىٰ عجلة وطيش وعنف، وإما إلىٰ تفريط وإضاعة، والرفق والأناة بينهما.. وصاحب الخلق الوسط مهيب محبوب عزيز جانبه، حبيب لقاؤه. وفي صفة نبينا محمد ﷺ: «من رآه بديهة هابه، ومن خالطه عشرة أحبه»أهـ[1].

والحاصل أن الاستقامة هي التزام دين الله عز وجل بلزوم الوسطية التي هي سمة هذا الدين وهي دليل اتباع الرسول ﷺ وما كان عليه أصحابه رضي الله عنهم مع الإخلاص لله عز وجل في ذلك كله ولزوم ذلك كله في حياة العبد حتىٰ يتوفاه الله عز وجل.

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، باختصار.

المنارة الثانية عشرة

خطر الهوىٰ والتعصب علىٰ الدعاة وطلبة العلم

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه وبعد.

فإن علىٰ الداعية في دعوته إلىٰ الله عز وجل أن لا يغفل أنه عبد لله تعالىٰ يتعبد لربه سبحانه بدعوة نفسه والناس إلىٰ عبادة الله عز وجل وحده لا شريك له، ويريد من ذلك إرضاء مولاه سبحانه بادئ ذي بدء وإنقاذ نفسه والناس الذين يدعوهم من الظلمات إلىٰ النور ومن الشقاء إلىٰ السعادة.

وإن المحافظة علىٰ هذه الأهداف النبيلة وعدم الغفلة عنها لمن أعظم الأسباب التي يتقي بها الداعية شر هواه وردود أفعاله والتي غالبًا ما يغيب فيها العقل والشرع ويسيطر فيها الهوىٰ ودوافع النفس وحظوظها.

وهذا شيء يلاحظه الإنسان من نفسه ومن غيره، فما إن يغفل العبد عن نفسه وإلزامها بالعبودية لله عز وجل في جميع تصرفاتها وأحوالها – ومن ذلك الدعوة إلىٰ الله عز وجل – إلا ويجد الهوىٰ قد

تسرب إلىٰ قلبه وبدأت حظوظ النفس تسيطر علىٰ بعض المنطلقات في الدعوة إلىٰ الله عز وجل، وهنا يبدأ الخطر، وتمرض القلوب، وتتعرض الأعمال للضياع والعياذ بالله تعالىٰ.

ويظهر هذا جليًّا في مواطن الاختلاف والردود التي تحصل بين أهل العلم، ولا يخفىٰ ما ينشأ عن ذلك من رد للحق وتعصب للباطل وتقديس للرجال وظلم للمخالف وبخسه حقه.

والهوىٰ خطره عظيم فهو الذي جعل الكفار يتعصبون لكفرهم وما كا ن عليه آباؤهم مع علمهم ببطلان ما هم عليه وأن ما تدعوهم إليه الرسل هو الحق المبين، وهو الذي يوقع الفساق في مهاوي الرذيلة والفساد، وهو الذي يوقع بعض أهل العلم في رد الحق والتعصب لما هم عليه وأشياخهم ولوكان باطلاً.

ونظرًا لما للهوىٰ من الخطر العظيم والمفاسد الكبيرة علىٰ العباد في شتىٰ الأزمنة والأمكنة والأحوال فإنه يحسن الوقوف عند الأسباب التي تدفع إلىٰ اتباع الهوىٰ وبالتالي معرفة العلاج والأدوات التي تتقىٰ به هذه الأسباب حتىٰ يكون هوىٰ العبد تبعًا لمرضات الله عز وجل.

وإن التخلص من الهوىٰ أو التقليل منه قدر المستطاع ليعد السبب النافع والعلاج الناجع بإذن الله تعالىٰ لأمراض الفرقة والتعصب والتحزب؛ والتي إن قُضِي عليها فقد فتح باب الأمل في وحدة

المسلمين واجتماعهم وبخاصة أهل العلم منهم والدعاة والذي هو بدوره باب إلىٰ النصر والتمكين وظهور الإسلام علىٰ الدين كله ولو كره المشركون .

ذكر الشيخ عبد الرحمن المعلمي رحمه الله تعالىٰ في كتابه النفيس (التنكيل) مجموعة من الأسباب التي توقع في الهوىٰ والتعصب ورد الحق، ثم أعقبها بذكر العلاج أسوقها للقارئ الكريم مختصرة لفائدتها .

قال رحمه الله تعالىٰ : (ومخالفة الهوىٰ للحق في الاعتراف بالحق من وجوه :

الأول : أن يرىٰ الإنسان أن اعترافه بالحق يستلزم اعترافه بأنه كان علىٰ باطل فالإنسان ينشأ علىٰ دين أو اعتقاد أو مذهب أو رأي يتلقاه من مربيه ومعلمه علىٰ أنه حق؛ فيكون عليه مدة ثم إذا تبين له أنه باطل شق عليه أن يعترف بذلك، وهكذا إذا كان آباؤه أو أجداده أو متبوعه علىٰ شيء، ثم تبين له بطلانه، وذلك أنه يرىٰ أن نقصهم مستلزم لنقصه، فاعترافه بضلالهم أو خطئه اعتراف بنقصه .

الوجه الثاني : أن يكون قد صار له في الباطل جاه وشهرة ومعيشة، فيشق عليه أن يعترف بأنه باطل فتذهب تلك الفوائد .

الوجه الثالث : الكبر، يكون الإنسان علىٰ جهالة أو باطل فيجيء

آخر فيبين له الحجة، فيرىٰ أنه إن اعترف كان معنىٰ ذلك اعترافه بأنه ناقص، وأن ذلك الرجل هو الذي هداه، ولهذا ترىٰ من المنتسبين إلىٰ العلم من لا يشق عليه الاعتراف بالخطأ إذا كان الحق يتبين له ببحثه ونظره، ويشق عليه ذلك إذا كان غيره هو الذي بيَّن له.

الوجه الرابع: الحسد، وذلك إذا كان غيره هو الذي بين الحق فيرىٰ أن اعترافه بذلك الحق يكون اعترافًا لذلك المبين بالفضل والعلم والإصابة، فيعظم ذلك في عيون الناس، ولعله يتبعه كثير منهم، وإنك لتجد من المنتسبين إلىٰ العلم من يحرص علىٰ تخطئة غيره من العلماء ولو بالباطل حسداً منه لهم، ومحاولة لحط منزلتهم عند الناس...)[١].

ثم أخذ رحمه الله تعالىٰ بعد ذلك يذكر بعض الصور التي تكون عند بعض أهل العلم ويكون دافعها الهوىٰ والتعصب فيقول: (.. فتجد ذا الهوىٰ كلما عرض عليه دليل لمخالفيه أو ما يوهن دليلاً لأصحابه شق عليه ذلك واضطرب واغتاظ وسارع إلىٰ الشغب، فيقول في دليل مخالفيه: هذه شبهة باطلة مخالفة للقطعيات، وهذا المذهب مذهب باطل لم يذهب إليه إلا أهل الزيغ والضلال...، ويؤكد ذلك بالثناء علىٰ مذهبه وأشياخه، ويعد المشاهير منهم ويطريهم بالألفاظ

---

(١) التنكيل، للمعلمي اليماني ٢/ ١٨٠ – ١٨٢ (باختصار).

الفخمة، والألفاظ الضخمة، ويذكر ما قيل في مناقبهم ومثالب مخالفيهم، وإن كان يعلم أنه لا يصح أو أنه باطل، ومن أوضح الأدلة علىٰ غلبة الهوىٰ علىٰ أكثر الناس - أنك تراهم - علىٰ أديان مختلفة ومقالات متباينة، ومذاهب متفرقة، وآراء متدافعة ثم تراهم كما قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، [الروم: ٣٢].

فلا تجد من ينشأ علىٰ شيء من ذلك ويثبت عليه يرجع عنه إلا القليل، وهؤلاء القليل يكثر أن يكون أول ما بعثهم علىٰ الخروج عما كانوا عليه أغراض دنيوية..)[1].

واستمر في ذكر بعض صور اتباع الهوىٰ فقال:

● «... افرض أنك قرأت آية فلاح لك منها موافقة قول لإمامك، وقرأت أخرىٰ فلاح لك منها مخالفة قول آخر له، أيكون نظرك إليهما سواء؟ لا تبالي أن يتبين منهما بعد التدبر صحة مالاح لك أو عدم صحته.

● افرض أنك وقفت علىٰ حديثين لا تعرف صحتهما ولا ضعفهما، أحدهما يوافق قولاً لإمامك والآخر يخالفه، أيكون نظرك فيهما سواء، لا تبالي أن يصح سند كل منهما أو يضعف؟...

---

(١) المرجع السابق.

● افرض أن رجلاً تحبه وآخر تبغضه تنازعا في قضية فاستفيت فيها ولا تستحضر حكمها وتريد أن تنظر. ألا يكون هواك في موافقة الذي تحبه...؟

● افرض أنك تعلم من رجل منكرًا وتعذر نفسك في عدم الإنكار عليه، ثم بلغك أن عالمًا أنكر عليه وشدد النكير، أيكون استحسانك لذلك سواء فيما إذا كان المنكر صديقك أم عدوك، والمنكر عليه صديقك أم عدوك؟

● فتش نفسك تجدك مبتلىٰ بمعصية أو نقص في الدين، وتجد من تبغضه مبتلىٰ بمعصية أو نقص آخر ليس في الشرع بأشد مما أنت مبتلىٰ به. فهل تجد استشناعك ما هو عليه مساويًا لاستشناعك ما أنت عليه، وتجد مقتك نفسك مساويًا لمقتك إياه؟

وبالجملة فمسالك الهوىٰ أكثر من أن تحصىٰ، وقد جربت نفسي أنني ربما انظر في القضية زاعمًا أن لا هوىٰ لي فيلوح لي فيها معنىٰ، فأقرره تقريرًا يعجبني ثم يلوح لي ما يخدش في ذاك المعنىٰ فأجدني أتبرم بذلك الخدش وتنازعني نفسي إلىٰ تكلف الجواب عنه، وغض النظر عن مناقشة ذاك الجواب، وإنما هذا لأني لما قررت ذاك المعنىٰ أولاً تقريرًا أعجبني صرت أهوىٰ صحته هذا مع أنه لم يعلم بذلك أحد من الناس، فكيف إذا كنت قد أذعته في الناس ثم لاح لي الخدش؟ فكيف لو لم يلح لي الخدش، ولكن رجلاً آخر اعترض علي به؟ فكيف لو كان

المعترض ممن أكرهه؟

والواجب علىٰ العالم وطالب العلم أن يفتش عن هوىٰ نفسه حتىٰ يعرفه ثم يحترز منه ويمعن النظر في الحق من حيث هو حق فإن بان له أنه مخالف لهواه آثر الحق علىٰ هواه. . .)[١] أهـ

وبعد هذا الكلام الجيد عن أسباب الوقوع في الهوىٰ ورد الحق والتعصب للباطل وبعد ذكر الأمثلة لذلك ، يحسن ذكر بعض الوسائل المعينة علىٰ تجنب الهوىٰ وقبول الحق.

إن الوقوع في الباطل والضلال بسبب الجهل يكون علاجه بالعلم والبصيرة في الدين . أما البقاء علىٰ الباطل بعد تبين بطلانه ورد الحق بعد ما تبين أنه الحق فإن علاج هذا المرض الخطير لا ينفع فيه العلم وإزالة الشبهة لأن سببه الهوىٰ والتعصب وليس الجهل والشبهة، ومثل هذا لا ينفع فيه إلا أن يذكر بتقوىٰ الله عز وجل والخوف من عقابه سبحانه كما يذكر بشرف الحق واتباعه والثواب العظيم الذي يكتبه الله عز وجل للمتبعين للحق والمؤثرنيه علىٰ أهوائهم وشهواتهم؛ وفي ذلك يقول المعلمي رحمه الله تعالىٰ: «هذه أمور ينبغي للإنسان أن يقدم التفكر فيها ويجعلها نصب عينيه.

● يفكر في شرف الحق وضعة الباطل، وذلك بأن يفكر في عظمة الله عز وجل وأنه رب العالمين، وأنه سبحانه يحب الحق ويكره الباطل،

---

(١) التنكيل ٢/١٨٦ – ١٩٨ باختصار وتصرف يسير.

وأن من اتبع الحق استحق رضوان رب العالمين، فكان سبحانه وليه في الدنيا والآخرة، بأن يختار له كل ما يعلمه خيرًا له وأفضل وأنفع وأكمل وأشرف وأرفع حتىٰ يتوفاه راضيًا مرضيًا، فيرفعه إليه ويقربه لديه، ويجعله في جواره مكرمًا منعمًا في النعيم المقيم، والشرف الخالد، الذي لا تبلغ الأوهام عظمته، وأن من أخلد إلىٰ الباطل استحق سخط رب العالمين وغضبه وعقابه، فإن آتاه شيئًا من نعيم الدنيا فإنما ذلك لهوانه عليه ليزيده بُعداً عنه، وليضاعف له عذاب الآخرة الأليم الخالد الذي لاتبلغه الأوهام.

● يتدبر ما يرجىٰ لمؤثر الحق من رضوان رب العالمين، وحسن عنايته في الدنيا والفوز العظيم الدائم في الآخرة، وما يستحقه متبع الهوىٰ من سخطه عز وجل، والمقت في الدنيا والعذاب الأليم الخالد في الآخرة، وهل يرضىٰ عاقل لنفسه أن يشتري لذة اتباع هواه بفوات حسن عناية رب العالمين وحرمان رضوانه والقرب منه والزلفىٰ عنده والنعيم العظيم في جواره، وباستحقاق مقته وسخطه وغضبه وعذابه الأليم الخالد؟ لا ينبغي أن يقع هذا حتىٰ من أقل الناس عقلاً، سواء أكان مؤمنًا موقنًا بهذه النتيجة، أم ظانًا لها، أم شاكًا فيها، أم ظانًا لعدمها...

● يستحضر أن الذي يهمه ويُسأل عنه هو حاله في نفسه، فلا يضره عند الله تعالىٰ ولا عند أهل العلم والدين والعقل أن يكون

معلمه أو مربيه أو أسلافه أو أشياخه علىٰ نقص، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يَسلَموا من هذا، وأفضل هذه الأمة أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ورضي عنهم وكان آباؤهم وأسلافهم مشركين.

هذا مع احتمال أن يكون أسلافك معذورين إذا لم ينبهوا ولم تقم عليهم الحجة، وعلىٰ فرض أن أسلافك كانوا علىٰ خطأ يؤاخذون به فاتباعك لهم وتعصبك لا ينفعهم شيئًا بل يضرهم ضرراً شديداً؛ فإنه يلحقهم مثل إثمك ومثل إثم من يتبعك من أولادك وأتباعك إلىٰ يوم القيامة، كما يلحقك مع إثمك مثل إثم من يتبعك إلىٰ يوم القيامة، أفلا ترىٰ أن رجوعك إلىٰ الحق هو خير لأسلافك علىٰ كل حال؟

● يأخذ نفسه بخلاف هواها فيما يتبين له، فلا يسامحها في ترك واجب أو ما يقرب منه، ولا في ارتكاب معصية أو ما يقرب منها، ولا في هجوم علىٰ مشتبه، ويروضها علىٰ التثبت والخضوع للحق، ويشدد عليها في ذلك حتىٰ يصير الخضوع للحق ومخالفة الهوىٰ عادة له.

● يأخذ نفسه بالاحتياط فيما يخالف ما نشأ عليه، فإذا كان فيما نشأ عليه أشياء يرىٰ أنه لا بأس بها، أو أنها مستحبة، وعلم أن من أهل

العلم من يقول إنها شرك أو بدعة أو حرام، فليأخذ نفسه بتركها حتىٰ يتبين له بالحجة الواضحة صحة ما نشأ عليه، وهكذا ينبغي له أن ينصح غيره ممن هو في مثل حاله، فإن وجدت نفسك تأبىٰ ذلك، فاعلم أن الهوىٰ مستحوذ عليها فجاهدها»أهـ[١].

❁ ❁ ❁

---

(١) التنكيل ٢/١٩٠ – ٢٠٠ (باختصار).

المنارة الثالثة عشرة

التثبت في نقل الأقوال وسماعها والحكم عليها

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه وبعد.

قال الله عز وجل: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: يقول: لا تقل.

وقال العوفي عنه: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم.

وقال محمد ابن الحنفية: يعني شهادة الزور.

وقال قتادة: لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم، فإن الله تعالىٰ سائلك عن ذلك كله.

ومضمون ما ذكروه أن الله تعالىٰ نهىٰ عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالىٰ: ﴿**اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ**

بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢][(١)].

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية:

«وهذه الكلمات القليلة تقيم منهجًا كاملاً للقلب والعقل، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثًا جداً، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله، ميزة الإسلام عن المناهج العقلية الجافة.

فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها؛ هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق، ومتىٰ استقام القلب والعقل علىٰ هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتأمل، ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم.

والأمانة العلمية التي يشيد بها الناس في العصر الحديث ليست سوىٰ طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعتها الكبرىٰ ويجعل الإنسان مسؤولاً عن سمعه وبصره وفؤاده، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد.

---

(١) تفسير ابن كثير عند الآية ٣٦ من سورة الإسراء.

إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب، أمانة يسأل عنها صاحبها وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعًا، أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة، وكلما روىٰ الإنسان رواية، وكلما أصدر حكمًا علىٰ شخص أو أمر أوحادثة.

﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين، ومالم تتثبت من صحته: من قول يقال ورواية تروىٰ. ومن ظاهرة تُفسر أو واقعة تُعلل. ومن حكم شرعي، أو قضية اعتقادية.

وفي الحديث: « **إياكم والظن فإنه أكذب الحديث** »(١)، وفي سنن أبي داود: (**بئس مطية الرجل: زعموا**)(٢)، وفي الحديث الآخر: (**إن أفرىٰ الفرىٰ، أن: يُري الرجل عينيه مالم تريا**)(٣).

وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث علىٰ تقرير ذلك المنهج الكامل المتكامل الذي لايأخذ العقل وحده بالتحرج في أحكامه والتثبت في استقرائه؛ إنما يصل ذلك التحرج بالقلب في خواطره وتصوراته، وفي مشاعره وأحكامه، فلا يقول اللسان كلمة، ولا يروي حادثة، ولا ينقل رواية، ولا يحكم العقل حكمًا، ولا يبرم الإنسان أمرًا إلا وقد تثبت من

---

(١) البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣).
(٢) أبو داود في الأدب (٤٩٧٢)، وفي صحيح سنن أبي داود (٤١٥٨).
(٣) أحمد ٢/٩٢ من حديث ابن عمر.

كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة في صحتها: ﴿﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] حقًّا وصدقًا..»[١] اهـ.

إن التفريط في هذا المنهج العظيم الذي أوصىٰ الله به عباده المؤمنين، لمن أعظم أسباب الفرقة والعدوان والبغضاء فكم من مظلوم في ماله أو بدنه أو عرضه كان سبب ذلك التسرع في نقل الأخبار وإشاعتها دون تمحيص وتثبت، وكم من أواصر وصلات قطعت بين الأرحام والإخوان كان سببها عدم التثبت والقول بالظنون أو بلا علم، بل كم قامت من حروب وفتن وأساسها أخبار وشائعات وظنون وتهم باطلة.

من أجل ذلك كان لزامًا علىٰ كل مسلم يريد لنفسه النجاة في الدنيا والآخرة وألا يكون سببًا في ظلم العباد وإثارة الفتن أن يعي معنىٰ الآية السابقة ويطبقها في حياته فيتثبت من كلامه قبل أن يدلي به للناس ويتثبت من سماعه، فلا ينقل عن أحد مالم يقله أو يقصده. ويتثبت في أحكامه ومواقفه.

وإن منهج التثبت في القول والنقل والسماع لا يستغني عنه مسلم مهما كان مستواه من العلم والثقافة، فالعالم في تعليمه العلم لا بد له

(١) في ظلال القرآن عند الآية (٣٦) من سورة الإسراء.

من التثبت فيما ينقل من العلم والأقوال والروايات، والقاضي لا بد له من التثبت من البيانات والشهود وتفاصيل القضايا، والمفتي لا بد له من التثبت من الأدلة وتفاصيل الواقعة التي يريد أن يفتي فيها، والداعية لابد له من التثبت فيما يدعو الناس إليه بأنه الحق كما أنه محتاج إلىٰ التثبت في نقل الأخبار وسماعها وفهمها والحكم عليها، وعامة الناس محتاجون إلىٰ التثبت فيما يتناقلونه من الأخبار ويسمعونها عن الأشخاص أو الهيئات أو الأحوال، وبقية طبقات الناس من إعلاميين وتجار وساسة وعسكريون... الخ. كل أولئك محتاجون إلىٰ هذا المنهج السامق الذي أوصىٰ الله عز وجل به، وإلا يأخذ به المسلمون في حياتهم وتعاملاتهم تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.

ويمكن إرجاع أصول التثبت إلىٰ الأصول التالية:

(١) التثبت من صحة الكلام المسموع أو المقروء: وثمرة هذا الأصل الاطمئنان إلىٰ صدق الخبر المسموع أو المكتوب، لأن الخبر قد يكون كذبًا والرواية قد تكون مختلقة وعندها يُرفض الخبر وترد الرواية، ويسلم الإنسان من نقل الأخبارالمكذوبة والشائعات.

(٢) التثبت من دقة كلام المتكلم ووضوح عبارته: فقد يكون أصل الخبر صحيحًا والمتكلم به غير متهم بالكذب، ولكن قد يتبين أن الخبر ليس كما نقل وذلك لعدم دقة المتكلم به في عباراته وعدم

استطاعته الإفصاح عما يريد، أو أن نقله للخبر كان بأسلوب ركيك غامض جعل السامع يفهم منه غير المقصود، ومن هنا تنشأ الشائعات إذا تسلسل النقل بهذه الطريقة، ومن هنا يجب التثبت من دقة عبارة المتكلم ووضوحها.

(٣) التثبت من دقة فهم السامع واستيعابه: في هذه الحالة قد يكون المتكلم بالخبر دقيقًا في عبارته وأدائه وهو صادق فيما ينقل، ولكن التثبت ينصب في هذه الحالة علىٰ دقة فهم السامع للكلام المنقول، فقد يكون السامع بطيء الاستيعاب سيء الفهم، فيفهم الكلام علىٰ غير مقصوده فينقله بعد ذلك لغيره بفهمه الخاطئ، ومن هنا أيضًا تبدأ الإشاعات والأكاذيب مع أن الناقلين لم يؤتوا من كذبهم فهم صادقون، ولكنهم أتوا من سوء فهمهم وقلة انتباههم، ومن هنا يجب التثبت من أن السامع قد فهم الفهم الدقيق الصحيح لما سمع.

وهذه المراحل الثلاث من التثبت لا بد للمسلم أن يعيها وهو يتكلم بالأخبار أو يسمعها؛ حيث يجب عليه تقوىٰ الله عز وجل فلا يقول ولا ينقل إلا صدقًا وإذا تكلم فليكن منتبهًا في كلامه دقيقًا في عبارته حتىٰ لا يفهم عنه الكلام علىٰ غير حقيقته، وإذا سمع فليرع سمعه ويحضر ذهنه حتىٰ يكون فهمه دقيقًا مستوعبًا لما قيل.

وكما هو مطلوب منه أن يتثبت من هذه الأمور في نفسه فمطلوب منه أن يطمئن علىٰ وجودها أيضًا في غيره من الناقلين والسامعين.

ولقد كان السلف رحمهم الله تعالىٰ حريصين أشد الحرص فيما يقولونه ويسمعونه من الفتاوىٰ والأقوال علىٰ هذا المنهج الرباني الكريم، ومن ذلك ما تواتر من الروايات المنقولة عنهم في تحريمهم للإفتاء بغير علم وأن لا يفتي العالم في مسألة حتىٰ يفهم واقعها وصحة دليلها ولا يروي رواية إلا بعد التثبت من صدقها وصحتها.

ومن ذلك ما نقله ابن القيم رحمه الله تعالىٰ في آداب المفتي والمستفتي حيث يقول: «وكان أيوب إذا سأله السائل قال له: أعد، فإن أعد السؤال كما سأله عنه أولاً أجابه وإلا لم يجبه، وهذا من فهمه وفطنته رحمه الله تعالىٰ، وفي ذلك فوائد عديدة: منها أن المسألة تزداد وضوحًا وبيانًا بتفهم السؤال، ومنها أن السائل لعله أهمل فيها أمرًا يتغير به الحكم فإذا أعادها ربما يتبين له، ومنها أن المسئول قد يكون ذاهلاً عن السؤال أولاً، ثم يحضر ذهنه بعد ذلك ومنها: أنه ربما بان له تعنت السائل وأنه وضع المسألة؛ فإذا غير السؤال وزاد فيه ونقص فربما ظهر له أن المسألة لا حقيقة لها وأنها من الأغلوطات أو غير الواقعات

التي لا يجب الجواب عنها)[١] أهـ.

ومن هذا النقل يتبين لنا بعض جوانب التثبت التي سبق الإشارة إليها.

نسأله سبحانه الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، ونعوذ به من أن نقترف على أنفسنا سوءاً أو نجره إلى مسلم والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

---

(١) إعلام الموقعين ٢ /١٨٧.

المنارة الرابعة عشرة

الفهم الصحيح للورع والزهد

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه وبعد.

فإن من المفاهيم التي أصابها الخلل عند بعض المتنسكة مفهوم الورع والزهد حتىٰ جاوزوا فيها منهج سلف الأمة المهديين وأتوا بتصورات ومواقف عدوها من الزهد والورع وهي ليست منها في شيء، لأنها إما جانحة إلىٰ الغلو والزيادة أو إلىٰ التقصير والتفريط والتلبيس كما أن الشيطان قد صوَّر لبعضهم بأنه من أهل الورع والزهد بتركه لبعض المباحات أو الشبهات مع أنه متلبس ببعض المحرمات الواضحة أو تاركًا لبعض الواجبات الصريحة وهو يعلم بذلك أو لا يعلم.

من أجل ذلك جاءت هذه المقالة السريعة في تحديد الفهم الصحيح للورع والزهد كما فهمه السلف الصالح رحمهم الله تعالى مع التحذير من نزغات الشيطان وتلبيسه في هذا الباب.

جاء عن السلف عدة تعريفات للورع والزهد بعضها ذهب إلىٰ مظهر أو نوع من أنواع الزهد والورع وبعضها الآخر ذهب إلىٰ مظهر

أو نوع آخر، ولذلك فالاختلاف فيما بينها إنما هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، لأنها تعود في جملتها إلىٰ تعريف عام منضبط هو الذي اختاره الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ حيث يقول: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه يقول: الزهد: هو ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة. وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها»[1] اهـ.

وبالتأمل في هذين التعريفين للزهد والورع وبالتدقيق في مدلولهما نخرج بالفوائد التالية:

(١) أن مقام الزهد أعلىٰ من مقام الورع، لأن الزاهد لاتراه إلا محاسبًا لنفسه شحيحًا بوقته لا يضيع عمره في شيء لا يقربه إلىٰ الله عز وجل ولا ينفعه في الآخرة وإنما ينظر إلىٰ ما يقوله ويفعله فإن كان مما ينفعه عند الله عز وجل أخذ به وعلق همته به وإن كان لا يرجو نفعه في الآخرة زهد به وتركه ولو لم يكن منه ضرر في الآخرة، ولا يعني هذا أن الزاهد لا يتمتع بالمباحات بل إنه يتمتع بها من غير توسع وينوي بها التقوّي علىٰ طاعة الله عز وجل وبهذاتنفعه في الآخرة.

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٠.

أما الورع فصاحبه يتجنب ما يخاف ضرره في الآخرة فإذا خلا من الضرر فقد يأخذ به ولو لم ينتفع به في الآخرة، أي أنه يتجنب الحرام وشبهه ويفعل الواجب وشبهه، وما سوىٰ ذلك فهو متوسع فيه تركًا أو فعلاً من دون استحضار نية التعبد بذلك.

وهذا مقام رفيع لكنه دون مقام الزهد.

وبذلك نستطيع القول بأن كل زاهد فهو ورع، وليس كل ورع زاهد.

(٢) بالفهم الصحيح للزهد والورع حسب التعريفات السابقة نتخلص من الفهم الخاطئ والغلط الذي قد يقع فيه بعض الناس في موضوع الزهد والورع، ولذلك صور منها:

● قصر الزهد علىٰ مظاهر معينة في المأكل والمشرب والملبس والمسكن أو ترك الاكتساب، والتفرغ للذكر والقرآن ونوافل العبادات... الخ، ونسيان ما هو أهم من ذلك وهو زهد القلب وميله إلىٰ الآخرة ومحبته وتوكله علىٰ الله عز وجل وترك ما يضره من الآثام الباطنة والظاهرة، ولذلك فأول ما ينبغي أن ينصب إليه اهتمام الزاهد بحق: زهده في ما حرم الله عز وجل وقيامه بما أوجب الله عز وجل ويلي ذلك زهده في مشتبهات الحرام وفعله لمشتبهات الواجب ثم يصل بعد ذلك إلىٰ زهده في المباحات التي لا تنفعه في الآخرة وإن أخذ بها نوىٰ

بها التقوي علىٰ طاعة الله سبحانه فتتحول المباحات في حقه إلىٰ عبادات ينتفع بها في الآخرة.

● اعتقاد بعض الناس أن الزهد والورع يختصان بجانب التروك فقط فلا يرون الورع أو الزهد إلا في ترك الحرام أو مشتبهاته لا في أداء الواجبات ومشتبهاتها مع أننا لو أمعنا النظر في مفهوم (الترك) الوارد في تعريف الزهد والورع لرأيناه يشمل ترك المحرم ومشتبهاته وفعل الواجب ومشتبهاته ومن قام بذلك فقد ترك ما يخاف ضرره في الآخرة.

ومن هذا الغلط تنشأ بعض الصور المتناقضة في حياة من يدعي الزهد أو الورع.

فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ يفصل هذه الحالة فيقول: « يقع الغلط في الورع علىٰ ثلاث جهات:

أحدها: اعتقاد كثير من الناس أنه من باب الترك، فلا يرون الورع إلا في ترك الحرام، لافي أداء الواجب، وهذا ما ابتلي به كثير من المتدينة المتورعة، ترىٰ أحدهم يتورع عن الكلمة الكاذبة، وعن الدرهم فيه شبهة لكونه من مال ظالم، أو معاملة فاسدة، ويتورع عن الركون إلىٰ الظلمة من أجل البدع في الدين، وذوي الفجور في الدنيا، ومع هذا يترك أموراً ، واجبة عليه؛ إما عيناً أو كفاية وقد تعينت عليه،

من: صلة رحم، وحق جار، ومسكين، وصاحب، ويتيم، وابن سبيل، وحق مسلم، وذي سلطان، وذي علم، وعن أمر بمعروف، ونهي عن منكر، وعن الجهاد في سبيل الله... إلىٰ غيرذلك مما فيه نفع للخلق في دينهم ودنياهم مما وجب عليه. أو يفعل ذلك لا علىٰ وجه العبادة لله تعالىٰ؛ بل من جهة التكليف ونحو ذلك»(١) أ هـ.

● قيام بعض الناس ببعض الأعمال التي قد تكون محرمة أو بترك بعض الأعمال التي قد تكون واجبة اعتقاداً منهم أن ذلك من الورع. وهذا يحصل في العادة عند تعارض المصالح والمفاسد وعدم الموازنة لما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية، ويشرح شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ هذه المسألة فيقول: «وتمام الورع أن يتعلم الإنسان خير الخيرين، وشر الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها علىٰ تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية، والمفسدة الشرعية؛ فقد يدع واجبات، ويفعل محرمات، ويرىٰ ذلك من الورع، كمن يدع الجمعة والجماعات خلف الأئمة الذين فيهم بدعة، أو فجور، ويرىٰ ذلك من الورع، ويمتنع من قبول شهادة الصادق، وأخذ علم العالم لما في صاحبه من بدعة خفيفة، ويرىٰ ترك قبول سماع هذا الحق الذي

(١) مجموع الفتاوىٰ ٢٠/١٣٩.

يجب سماعه من الورع»[١].

● جهل بعض المتورعة أو المتزهدة بالكتاب والسنة فيفعلون بعض الأفعال ظنًّا منهم أنها واجبة أو شبه واجبة، ويتركون بعض الأعمال ظنًّا منهم أنها محرمة أو شبه محرمة، ودافعهم إلىٰ ذلك الورع والتدين لكن جهلهم ببعض الحلال والحرام قد يؤدي بهم إلىٰ فعل ما لم يدل الدليل علىٰ وجوبه أو ترك مالم يدل الدليل علىٰ أنه حرام أو مشتبه بالحرام، وإنما قد يكون هذا الورع مبني علىٰ الظن أو الميل النفسي فحسب.

وعن هذا يتحدث شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ فيقول: «.. إذا فعل الواجب والمشتبه وترك المحرم والمشتبه فينبغي أن يكون اعتقاد الوجوب والتحريم بأدلة الكتاب والسنة، وبالعلم لا بالهوىٰ، وإلا فكثير من الناس تنفر نفسه من أشياء لعادة ونحوها، فيكون ذلك مما يقوي تحريمها واشتباهها عنده، ويكون بعضهم فىٰ أوهام وظنون كاذبة، فتكون تلك الظنون مبناها علىٰ الورع الفاسد... ومن هذا الباب الورع الذي ذمه الرسول ﷺ في الحديث الذي في الصحيح لما ترخص في أشياء فبلغه أن أقوامًا تنزهوا عنها، فقال: «ما بال رجال يتنزهون عن أشياء أترخص فيها؟ والله أني لأرجو أن

---

(١) مجموع الفتاوىٰ: ١٠/٥١٢.

أكون أعلمهـم بالله وأخشاهم(١).

ولهذا يحتاج المتدين المتورع إلىٰ علم كثير بالكتاب والسنة والفقه في الدين، وإلا فقد يفسد تورعه الفاسد أكثر مما يصلحه، كما فعله الكفار وأهل البدع من الخوارج والروافض وغيرهم» أهـ(٢).

● إرادة الإنسان بورعه وزهده الدنيا من الشهرة أو الصدارة أو ثناء الناس... إلخ.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: «... واعلم أن الورع لا ينفع صاحبه فيكون له ثواب إلا بفعل المأمور به من الإخلاص، أما الورع بفعل المأمور به فظاهر، فإن الله تعالىٰ لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه، وأما ترك المنهي عنه الذي يسميه بعض الناس ورعًا فإنه إذا ترك السيئات لغير وجه الله لم يثب عليها، وإن لم يعاقب عليها، وإن تركها لوجه الله أثيب عليها، ولا يكون ذلك إلا بما يقوم بقلبه من رجاء رحمة الله، أو خشية عذابه» أهـ(٣).

● إن الزهد في الدنيا قد يكون لطلب الراحة مما يلحق من ضررها. أو لعدم حصول المطلوب منها، وهذا كله ليس من الزهد في شيء وليس بمحمود عند الله عز وجل.

---

(١) البخاري (٦١٠١)، مسلم (٢٣٥٦).

(٢) مجموع الفتاوىٰ: ٢٠/١٤١، ١٤٢.

(٣) المصدر السابق: ٢٠/١٤٥.

وإنما المحمود من ترك الدنيا وذمها ما كان دافعه إرادة وجه الله عز وجل والدار الآخرة ولكون الدنيا تشغل عن ذلك، ولولا كون الدنيا تشغل عن عبادة الله عز وجل والدار الآخرة لم يشرع الزهد فيها، فلينتبه من يدعي الزهد إلىٰ هذا الأمر وليفتش عن نيته ولا يلبس الحق بالباطل.

● (أن قومًا زهدوا فيما ينفعهم بلا مضرة فوقعوا به في ترك واجبات أو مستحبات كمن ترك النساء وأكل اللحم ونحو ذلك.

وقد قال ﷺ: (**لكني أصوم وأفطر وأتزوج النساء وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني**)(١).

وقد يوقع زهداً في فعل محظورات، كمن ترك تناول ما أبيح له من المال والمنفعة، واحتاج إلىٰ ذلك فأخذه من حرام، أو سأل الناس المسألة المحرمة، أو استشرف إليهم، والاستشراف مكروه...

● ومن كان زهده زهد الكسل والبطالة والراحة لا لطلب الدار الآخرة بالعمل الصالح والعلم النافع، فإن العبد إذا كان زاهداً بطالاً فسد أعظم فساد، فهؤلاء لا يعمرون الدنيا ولا الآخرة، فمن ترك بزهده حسنات مأمور بها كان ما تركه خير من زهده.

---

(١) البخاري كتاب النكاح (٥٠٦٣)، مسلم (١٤٠١).

... ومن زهد فيما يشغله عن الواجبات أو يوقعه في المحرمات فهو من المقصرين أصحاب اليمين.

ومن زهد فيما يشغله عن المستحبات والدرجات فهو من المقربين السابقين)[١].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/١٥٠، ١٥١ (باختصار).

المنارة الخامسة عشرة

موانع الانتفاع بالعمل يوم القيامة

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد.

فإن من علامة توفيق الله عز وجل للعبد أن يوقظه من غفلته ويوفقه لتدارك عمره القصير، فيما ينفعه غداً في الدار الآخرة، ومن علامة الخذلان أن ينسىٰ العبد نفسه ويفرط في ساعاته وأيامه ولياليه ويتصرم العمر القصير دون أن يقدم لنفسه ما ينفعها عند الله عز وجل فضلاً عمَّا يضره ويهلكه.

وعندما ينظر الواحد منا إلىٰ حاله وحال كثير من الناس يجد التفريط وتضييع الأوقات بما لا ينفع أو بما يضرعياذاً بالله تعالىٰ، ولو حاسب كل واحد منا نفسه وحاول الرجوع إلىٰ ما مضىٰ من عمره الذي مر كلمح البصر وما عمله في ذلك العمر من القربات أو ما ضيعه من الأوقات لوجد النتيجة جد محزنة – إلا من رحم الله تعالىٰ – لأن ما ضاع من الأوقات بما لا ينفع أو بما يضر أكثر من تلك التي عمل فيها بالطاعات، فإذا أضيف إلىٰ ذلك أن العبد لا يضمن أيضاً انتفاعه من طاعاته وقرباته التي أداها وذلك لتعرضها لبعض المفسدات والآفات

كالرياء والسمعة والعُجب أو عدم موافقتها لما جاء به الرسول ﷺ، فماذا سيبقىٰ من الطاعات القليلة إذا مُرِّرَت علىٰ مصفاة الإخلاص والمتابعة؟ إنه لا يبقىٰ إلا أقل القليل.

إذن فالأمر جد خطير ولا يجوز للعبد أن يهمل نفسه ويتركها بلا محاسبة وتدقيق وتفتيش حتىٰ لا يأتي يوم القيامة فيبدو له من الله ما لم يحتسب، والعياذ بالله تعالىٰ.

وفي هذه المقالة القصيرة محاولة للتعرف علىٰ موانع الانتفاع بالعمل يوم القيامة لعلنا نتجنبها فننتفع بأعمالنا الصالحة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم.

والأصل في معرفة هذه الموانع قوله تعالىٰ: ﴿ **وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا** ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٩].

وهذه الآية وإن كانت قد انطوت علىٰ ذكر الشروط للانتفاع بالعمل الصالح فإن مفهوم المخالفة فيها يشير إلىٰ موانع الانتفاع، حيث ذكر الله عز وجل في هذه الآية الكريمة أن من شروط قبول العمل عند الله عز وجل وكونه مشكوراً عنده سبحانه ما يلي:

١- إرادة الدار الآخرة بقوله وعمله.

٢- تصديق هذه الإرادة والسعي إلىٰ الآخرة بعمل موافق لما جاء به الرسول ﷺ.

٣- أن يكون صاحب العمل موحداً مؤمناً بالله عز وجل غير مشرك به.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية: «وقوله: ﴿مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ أي: أراد الدار الآخرة، وما فيها من النعيم والسرور، ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾، أي طلب ذلك من طريقه، وهو متابعة الرسول ﷺ، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، أي: وقلبه مؤمن، أي مصدق بالثواب والجزاء ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[١].

ومن خلال هذه الآية الكريمة نستنبط الموانع التي تحول بين العبد وبين أن ينتفع بعمله يوم القيامة وهي كما يلي:

(١) أن لا يكون صاحب العمل مؤمناً بالله عز وجل ولا بوعده ووعيده أو كان مشركاً به أو مرتداً عن دينه.

فلو تقرب العبد إلىٰ الله عز وجل بقربات كثيرة من صلاة وصيام وغيرها وهو مشرك بالله عز وجل الشرك الأكبر وذلك بصرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله عز وجل فإنه بذلك لا ينتفع بأي عمل صالح عند الله عز وجل، لأن توحيد الله عز وجل والبراءة من الشرك وأهله يعد الشرط الأعظم في الانتفاع من بقية الأعمال والأقوال وبدون ذلك

---

(١) تفسير ابن كثير عند الآية (١٩) من سورة الإسراء.

تحبط جميع الأعمال كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

وقـوله تعـالىٰ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقـوله تعـالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾... الآية [الأنبياء: ٩٤].

إلىٰ غيرها من الآيات.

وخطورة هذا المانع أنه يحبط جميع الأعمال بينما الموانع التالية تحبط العمل الذي وجدت فيه فقط، ولا ينبغي للعبد أن يستهين بهذا المانع ولا أن يأمنه بل عليه أن يخافه، وأن يفتش في عقيدته وأعماله كلها خشية الوقوع في هذه الآفة العظيمة التي تحبط الأعمال ولا يغفرها الله عز وجل إلا بتوبة.

ومن يأمن الشرك بعد إمام الحنفاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث دعا ربه بقوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥].

(٢) إرادة العبد بعمله الدنيا وليس الآخرة، وهذا مانع كبير يحول بين العبد وبين أن ينتفع بعمله يوم القيامة، وهذا يكثر في عمل

المراءين والمريدين بأعمالهم شهرة، أو منصبًا، أو مالاً، أو أي عرض من أعراض الدنيا الفانية، فهؤلاء لا خلاق لهم في الآخرة من تلك الأعمال الملوثة.

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وقد أدخل العلماء في ذلك من أدىٰ العمل بإخلاص لله تعالىٰ لكنه أراد من عمله وتوبته وتركه للمعاصي آثارها الدنيوية وذلك بأن يبارك الله له في المال والولد ويجنبه المصائب والجوائح في الدنيا فقط، فمن كان دافعه إلىٰ العمل إرادة ثواب عمله في الدنيا فقط فإن هذه الأعمال معلولة غير مقبولة وغير مشكورة عند الله عز وجل يوم القيامة.

أما من أراد بعمله الآخرة وأراد مع ذلك بركتها في الدنيا فهذا مرغب فيه وسعيه مشكور عند الله عز وجل، إذا كمل الشروط الأخرىٰ لقبول العمل.

(٣) أن يكون سعيه وعمله مخالفًا لما جاء به الرسول ﷺ

لأن من شروط الانتفاع بالسعي والعمل أن يكون موافقًا لما جاء به الرسول ﷺ غير مبتدع ولا مبدل، وهذا هو الذي أشار إليه الإمام ابن

كثير رحمه الله تعالىٰ عند تفسيره لآية الإسراء حيث قال: (﴿ **وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا** ﴾ أي: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﷺ) أهـ.

ومن أوضح الأدلة في أن تخلف المتابعة عند العمل يمنع من الانتفاع به عند الله عز وجل قول الرسول ﷺ: (**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**)[1].

ومن هنا وجب الحذر من الابتداع والتعبد لله عز وجل بما لم يأذن به سبحانه أو يشرعه رسوله ﷺ فإن التفريط في ذلك يضيع علىٰ العبد سعيه وعمله ولو كان صاحبه مخلصاً لله فيه مريداً به الدار الآخرة لأن قبول العمل عند الله عز وجل مقيد بالشروط السالفة الذكر مجتمعة كلها في العمل فلو تخلف واحد منها بطل العمل وحيل بين صاحبه وبين الانتفاع منه.

وبذلك يتبين لنا خطورة إهمال النفس ومحاسبتها والحرص الشديد علىٰ إحسان العمل وإتقانه وتجنيبه كل ما يفسده ويمنع من الانتفاع منه في يوم عصيب رهيب الحسنة فيه لا تعدلها الدنيا بزينتها وزخرفها ثمناً.

ولنا أن نتصوركم يصفو لنا من العمل النظيف النافع عند الله عز وجل بعد أن يمر علىٰ هذه المصفيات السالفة الذكر.

---

(١) البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) واللفظ له.

إن الناظر اليوم إلىٰ نفسه وما أسلف من الأعمال الصالحة ليذهل عندما يرىٰ قلتها وضياع العمر بما لا ينفع - إلا من رحم الله تعالىٰ - ثم ليت أن هذه الأعمال علىٰ قلتها تكون مقبولة عند الله عز وجل إذن لهان الخطب، لكنها إذا عرضت علىٰ المصفيات السالفة الذكر فإن المحصلة في النهاية ستكون أقل القليل فمصفاة الإخلاص ترد كل عمل لم يرد به وجه الله عز وجل ومصفاة المتابعة ترد كل عمل لم يؤد علىٰ وجه الموافقة لما جاء به الرسول ﷺ.

ثم إن هذه المحصلة النظيفة من الأعمال والتي هي أقل القليل معرضة هي الأخرىٰ لمانع خطير يحول بين العبد وبين الانتفاع من أعماله التي تعب عليها وأتقنها - علىٰ قلتها - حتىٰ أصبحت مقبولة عند الله عز وجل ، وهذا المانع الخطير هو.

(٤) حقوق العباد ومظالمهم:

يقول الله عز وجل: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾**﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١]، والخصومة تكون فيما بين العباد من مظالم، فعن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: لما أنزلت هذه الآية، قال: أيْ رسولَ الله ﷺ: (أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواصِّ الذنوب قال ﷺ: « **نعم ليُكرَّرنَّ عليكم حتىٰ يُؤدَّىٰ إلىٰ كلِّ ذي حقٍّ حقُّه** »، قال الزبير: والله إن الأمر لشديد)[1].

---

(١) الترمذي ٩ /١١، وقال حسن صحيح ، ورواه الإمام أحمد ١ /١٦٧.

ومن الأحاديث المشهورة في ذلك حديث المفلس الذي قال فيه الرسول ﷺ : (**أتدرون من المفلس؟** قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، **قال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة؛ وكان قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فينقص هذا من حسناته، وهذا من حسناته؛ قال: فإن فنيت حسناته قبل أن يقضىٰ ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار**)(١).

وهذا المانع الخطير من موانع الانتفاع بالعمل الصالح يوم القيامة من أشد الموانع خطراً وأصعبها تحرزاً فلا يسلم من تبعات العباد إلا من رحم الله عز وجل، وقليل ما هم.

والغرماء يوم القيامة لا يقبلون من عمل خصومهم إلا النظيف والذي تجاوز مصفاة الإيمان والإخلاص والمتابعة، أما العمل الملوث فلا يقبلونه لعدم نفعه، فإذا كان العمل النظيف أقل القليل كما سبق بيانه لأنه ثمرة تصفيات كثيرة وكل مصفاة تسقط منه جزءاً، إذا كان الأمر كذلك فإن المغبون الخاسر من ضيع هذا القليل ووزعه يوم القيامة بين خصومه وغرمائه وحال بين نفسه وبين الانتفاع بأعماله المقبولة عند الله عز وجل، وذلك بتفريطه في الدنيا في حقوق العباد أو الاعتداء عليهم

---

(١) مسلم، كتاب البر والصلة (٢٥٨١).

في دين أو عقل أو نفس أو مال أو عرض.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن أكثر الخصوم يوم القيامة هم من أقرب الناس للنفس كالوالدين، والأبناء، والزوجة، والزوج، ذلك لما بينهم من الحقوق والواجبات ووجود الاحتكاك الدائم بهم والاجتماع معهم في كثير من الأوقات فالحذر الحذر من ظلم الأبناء في دينهم وإهمال تربيتهم والنفقة عليهم.. الخ. والحذر الحذر من بخس الوالدين حقوقهم وعدم الإحسان إليهم وكذلك الحال في بقية الأقارب والأباعد[١].

نسأل الله عز وجل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه موافقة لسنة نبيه ﷺ، صادرة عن إيمان وتوحيد خالصين كما نسأله أن يجنبنا ظلم العباد والاعتداء علىٰ حقوقهم وأن يخرجنا من الدنيا كافي اللسان عن أعراضهم، خمص البطون من أموالهم خفيفي الظهور من دمائهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) يرجع إلىٰ كتاب: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾، للمؤلف، لمعرفة صور الظلم والمظالم.

المنارة السادسة عشرة

يوم تبلىٰ السرائر

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد.

فعنوان هذه المقالة آية عظيمة من كتاب الله عز وجل يذكر الله سبحانه عباده فيها بشأن القلوب وأعمالها وسرائرها مما لا يعلمه الناس وهو بها عالم، كما ينبه الله عز وجل من خلال هذه الآية علىٰ أن هذه السرائر ستبلىٰ وتختبر يوم القيامة ويظهر ما فيها من الإخلاص والمحبة والصدق أو ما يضادها من النفاق والكذب والرياء.

وذلك في يوم القيامة يوم الجزاء والحساب وهذا واضح من الآية وما قبلها وبعدها حيث يقول الله عز وجل: ﴿**إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)**﴾ [الطارق: ٨ - ١٠].

والقلب هو محط نظر الله عز وجل وعليه يدور القبول والرد كما قال ﷺ: (**إن الله لا ينظر إلىٰ أجسامكم ولا إلىٰ صوركم ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم**)[1].

---

(١) مسلم: (٢٥٦٤).

والسـريرة إذا صلحت صلح شأن العبـد كله وصلحت أعـمـاله الظاهرة ولو كانت قليلة، والعكس من ذلك عندما تفسد السريرة فإنها تفسد بفسادها أقوال العبد وأعماله وتكون أقرب إلىٰ النفاق والرياء عياذًا بالله تعالىٰ، ويوضح هذا الأمر قوله ﷺ : (**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسـد كله وإذا فسـدت فسـد الجسـد كله ألا وهي القلب**)[١].

ويشـرح هذا ما نقله صاحب الحلية رحمه الله تعالىٰ عن وهب قوله: « ولا تظن أن العلانية هي أنجح من السريرة فإن مثل العلانية مع السريرة كمثل ورق الشجر مع عرقها، العلانية ورقها والسريرة عرقها. إن نخر العرق هلكت الشجرة كلها ورقها وعودها وإن صلحت صلحت الشجرة كلها ثمرها وورقها فلا يزال ما ظهر من الشجرة في خير ما كان عرقها مستخفيًا لا يرىٰ منه شيء كذلك الدين لايزال صالحًا ما كان له سريرة صالحة يصدق الله بها علانيته، فإن العلانية تنفع مع السريرة الصالحة كما ينفع عرق الشجرة صلاح فرعها، وإن كان حياتها من قبل عرقها فإن فرعها زينتها وجمالها، وإن كانت السـريرة هي ملاك الدين فإن العلانية معها تزين الدين وتجمله إذا عملها مؤمن لا يريد بها إلا رضاء ربه عز وجل »[٢].

---

(١) البخاري كتاب الإيمان (٥٢)، مسلم كتاب المساقاة (١٥٩٩).

(٢) حلية الأولياء ٤ / ٧٠.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ في تفسير قوله تعالىٰ ﴿يَوْمَ تُبْلَىٰ السَّرَائِرُ﴾ : « وفي التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة، وهو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة، فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحًا ، فتبدو سريرته علىٰ وجهه نورًا وإشراقًا وحياء، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعًا لسريرته، لا اعتبار بصورته، فتبدو سريرته علىٰ وجهه سوادًا وظلمة وشينًا، وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها »[(١)].

وقال أيضًا في تفسير هذه الآية: «قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبْلَىٰ السَّرَائِرُ﴾ أي تختبر، وقال مقاتل: تظهر وتبدو، وبلوت الشيء إذا اختبرته ليظهر لك باطنه، وما خفي منه، والسرائر جمع سريرة، وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه لله، فالإيمان من السرائر، وشرائعه من السرائر، فتختبر ذلك اليوم، حتىٰ يظهر خيرها من شرها، ومؤديها من مضيعها، وما كان لله مما لم يكن له؛ قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: يبدي الله يوم القيامة كل سر فيكون زينا في الوجوه، وشيناً فيها، والمعنىٰ تختبر السرائر بإظهارها، وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب، والحمد والذم »[(٢)] أهـ.

---

(١) بدائع التفسير ٥/١٨٥ .

(٢) بدائع التفسير ٥/١٨٥ .

مما سبق يتبين لنا عظم شأن القلب والسريرة حيث إنها محط نظر الله عز وجل وعليها مدار القبول عنده سبحانه وحسب صلاحها وفسادها يكون حسن الخاتمة وسوؤها، وكلما صلحت السريرة نمت الأعمال الصالحة وزكت ولو كانت قليلة والعكس من ذلك في قلة بركة الأعمال حينما تفسد السريرة ويصيبها من الآفات ما يصيبها، وهذا هو الذي يفسر لنا تفوق أصحاب محمد ﷺ علىٰ غيرهم ممن جاء بعدهم والذي قد يكون أكثر من بعض الصحابة عبادة وقربات.

حيث إن أساس التفاضل بين العباد عند الله عز وجل هو ما وقر في القلب من سريرة صالحة حشوها المحبة والتعظيم والإخلاص لله تعالىٰ.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم كانوا أفضل منكم، قيل له: بأي شيء؟ قال: إنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم»[1].

وعن القاسم بن محمد قال: كنا نسافر مع ابن المبارك فكثيراً ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي: بأي شيء فضل هذا الرجل علينا حتىٰ اشتهر في الناس هذه الشهرة إن كان يصلي إنا لنصلي، ولئن

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٤٢٠.

كان يصوم إنا لنصوم وإن كان يغزو فإنا لنغزو، وإن كان يحج إنا لنحج.

قال: فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة نتعشى في بيت إذ طفئ السراج، فقام بعضنا فأخذ السراج وخرج يستصبح فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج فنظرت إلىٰ وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع، فقلت في نفسي: بهذه الخشية فضل هذا الرجل علينا، ولعله حين فقد السراج فصار إلىٰ الظلمة ذكر القيامة(١).

وأخبار السلف في حرصهم علىٰ أعمال القلوب وإصلاح السرائر كثيرة ومتنوعة وبخاصة فيما يتعلق بمحبة الله عز وجل والخوف منه وإخلاص العمل له سبحانه ومن ذلك:

- قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «القوة في العمل أن لا تؤخر عمل اليوم للغد والأمانة ألا تخالف سريرة علانية واتقوا الله عز وجل فإنما التقوىٰ بالتوقي ومن يتق الله يقه»(٢).

- وعن عثمان رضي الله عنه قال: «ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله علىٰ صفحات وجهه وفلتات لسانه».

---

(١) المصدر السابق ٤ / ١٤٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ٥٧٢.

● وعن نعيم بن حماد قال سمعت ابن المبارك يقول: ما رأيت أحداً ارتفع مثل مالك ليس له كثير صلاة ولا صيام إلا أن تكون له سريرة[١].

● وعن خالد بن صفوان قال: لقيت مسلمة بن عبد الملك فقال: يا خالد أخبرني عن حسن أهل البصرة قلت: أصلحك الله أخبرك عنه بعلم أنا جاره إلىٰ جنبه وجليسه في مجلسه، وأعلم من قبلي به أشبه الناس سريرة بعلانية وأشبهه قولا بفعل، إن قعد علىٰ أمر قام به وإن قام علىٰ أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به وإن نهىٰ عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنيًا عن الناس ورأيت الناس محتاجين إليه قال: حسبك كيف يضل قوم هذا فيهم[٢].

● وعن الحسن رحمه الله تعالىٰ قال: ابن آدم لك قول وعمل وعملك أولىٰ بك من قولك، ولك سريرة وعلانية وسريرتك أولىٰ بك من علانيتك[٣].

● وعن ابن عيينة رحمه الله تعالىٰ قال: «إذا وافقت السريرة العلانية فذلك العدل، وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية

---

(١) المصدر السابق ٨/٩٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/٥٧٦.

(٣) مدارج السالكين ١/٤٣٦.

فذلك الفضل، وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الجور[١].

● وعن عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالىٰ قال. قيل لحمدون بن أحمد: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟! قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس وطلب الدنيا ورضا الخلق[٢].

● ويقول ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «... فكل محبة لغيره فهي عذاب علىٰ صاحبها وحسرة عليه إلا محبته ومحبة ما يدعو إلىٰ محبته ويعين علىٰ طاعته ومرضاته، فهذه هي التي تبقىٰ في القلب يوم تبلىٰ السرائر..»[٣].

ونكتفي بهذه المقتطفات من وصايا السلف في إصلاح السرائر لنتعرف علىٰ بعض العلامات الدالة علىٰ صلاح السريرة وسلامة القلب ومنها نعرف ما يضادها من المظاهر التي تدل علىٰ فساد في السريرة ومرض في القلب.

---

(١) صفة الصفوة ٢/٢٣٤.
(٢) المصدر السابق ٤/١٢٢.
(٣) روضة المحبين ص ٢٨٠.

ومن هذه العلامات:

(١) عناية العبد بأعمال القلوب ومنها إخلاص الأعمال والأقوال لله عز وجل ومحاولة إخفائها عن الناس وكراهة الشهرة والظهور، والزهد في ثناء الناس. ويضاد ذلك الرياء وإرادة الدنيا بعمل الآخرة وحب الظهور.

(٢) التواضع والشعور بالتقصير، والانشغال بإصلاح النفس وعيوبها، ويضاد ذلك الكبر والعجب والولع بنقد الآخرين.

(٣) الإنابة إلىٰ الدار الآخرة والتجافي عن الدنيا والاستعداد للرحيل وحفظ الوقت وتدارك العمر ويضاد ذلك الركون إلىٰ الدنيا وامتلاء القلب بهمومها ومتاعها الزائل ونسيان الآخرة وقلة ذكر الله عز وجل وتضييع الأوقات.

(٤) سلامة القلب من الحقد والغل والحسد، ويضاد ذلك امتلاؤه بهذه الأمراض – عياذاً بالله –.

(٥) التسليم لأمر الله عز وجل وأمر رسوله ﷺ دون لماذا وكيف؟؟ ويضاد ذلك الولوع بالمتشابهات والخواطر الرديئة.

(٦) الاهتمام بأمر الدين والدعوة إلىٰ الله عز وجل والجهاد في سبيله جل وعلا ومحبة كل داعية إلىٰ الخير والحق والدعاء له والتعاون

معه على البر والتقوى، ويضاد ذلك القعود عن تبليغ دين الله عز وجل وعدم الاهتمام به، بل إذا صفى له مأكله ومشربه ومسكنه وغير ذلك من متاع الدنيا الزائل فلا يهمه بعد ذلك شيء، وقد لا يقف الأمر في فساد السريرة عند هذا الحد بل قد يتعداه إلى مناصبة الداعين إلى الحق العداء أو التشهير بهم والتشكيك في نواياهم ومحاولة إحباط جهودهم الخيرة.

(٧) شدة الخوف من الله عز وجل، ومراقبته في السر والعلن، والمبادرة بالتوبة والإنابة من الذنب، ويضاد ذلك ضعف الوازع الديني وقلة الخوف من الله جل وعلا بحيث إذا خلا بمحارم الله عز وجل انتهكها، وإذا فعل معصية لم يتب منها بل أصر عليها وكابر وتبجح.

(٨) الصدق في الحديث والوفاء بالعهود وآداء الأمانة وإنفاذ الوعد وتقوى الله عز وجل في الخصومة، فكل هذه الخصال تدل على صلاح في السريرة، لأن أضداد هذه الصفات إنما هي من خصال المنافقين الذين فسدت سرائرهم، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ بقوله: (**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من نفاق: إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر**)[1]، ويدخل في ذلك ذو الوجهين الذي يلقى هؤلاء بوجه

---

(١) البخاري، كتاب الإيمان (٣٤)، مسلم (٥٨) واللفظ له.

وهـؤلاء بوجـه.

(٩) قبـول الحق والتـسليم لـه من أي جـهـة كـان، ويضـاد ذلك التعصب للأخطاء والجدال بالباطل واتباع الهوىٰ في ذلك.

وأكتفي بذكر هذه العلامات علىٰ صلاح الباطن والسريرة لتدل علىٰ ما سواها مما لم أذكره ها هنا.

ويحسن في نهاية هذ المقالة الإشارة إلىٰ بعض الثمرات العظيمة لصلاح السريرة وذلك فيما يلي:

١- نزول الطمأنية والسكينة في قلب من صلحت سريرته وثباته أمام فتن الشبهات والشهوات وابتلاءات الخير والشر.

٢- إلقاء المحبة لمن صلحت سريرته بين الناس مما يكون له الأثر في قبول كلامه ونصحه وأمره ونهيه.

٣- أثر صلاح الباطن والسريرة في حسن الخاتمة حيث ما سمع ولا علم - ولله الحمد - بأن صاحب السريرة الصالحة والقلب السليم قد ختم له بسوء، وإنما يكون ذلك لمن فسدت سريرته وباغته الموت قبل إصلاح الطوية.

٤- القبول عند الله عز وجل يوم القيامة ومضاعفة الحسنات وتكفير السيئات قال الله عز وجل: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ**

لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾ [الطلاق: ٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة: ٢٧].

٥- تفريج الكربات وإعانة الله عز وجل للعبد عند حدوث الملمات والضائقات كما حصل لأصحاب الغار.

٦- الهداية إلىٰ الحق والتوفيق إلىٰ الصواب عندما تحتار العقول والأفهام.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المنارة السابعة عشرة

الأخلاق وصلتها بالعقـيدة

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد.

فإن الإسلام يعني بمفهومه الشامل الاستسلام لله عز وجل والانقياد له بالطاعة ظاهراً وباطناً والبراءة من الشرك وأهله، وهوكلٌ لا يتجزأ والمطلوب من المسلم حتىٰ يحقق إسلامه وإيمانه أن يستسلم لله عز وجل في كل شئون حياته الباطنة والظاهرة.

يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾... الآية [البقرة: ٢٠٨].

ويقول تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

إن الإسلام عقيدة يبنثق منها أعمال وأقوال وأخلاق وشريعة وليس مجرد معرفة ذهنية وإقرار قلبي ثم لا أثر له في أعمال العبد وأخلاقه ومواقفه في حياته كلها.

ولهذا أجمع السلف على أن الإيمان اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

والمتأمل في حياة السلف الصالح يجد هذا الشمول في أخذ الإسلام واضحًا في حياتهم ومنهجهم، وقد كان لهم صولات وجولات مع المرجئة الذين فصلوا العمل عن الإيمان وحصروه في التصديق القلبي أو في التصديق وقول اللسان.

ثم أُصبنا في هذا الزمان بنابتة خدمتها المرجئة وإن كانت هي شر من المرجئة وذلك فيما أصاب المسلمون بعد الاستعمار الغربي والغزو الفكري حيث بدأ العلمانيون والمقلدون للغرب الكافر ينشرون سمومهم ويبثون أفكارهم المبنية على الفصام النكد بين الدين والحياة وبين العقيدة والشريعة والأخلاق ولكن الله عز وجل برحمته ولطفه قيّض لهذه الأفكار ومثيلاتها من يتصدى لها ويظهر عوارها ومناقضتها لحقيقة الإيمان والإسلام فنفع الله بهذه الجهود المباركة وانتبه المسلمون لما يراد بهم وأدركوا حقيقة إسلامهم وإيمانهم وأنه لا انفصام بين العقيدة والأخلاق بل هما متلازمان تلازم الروح والجسد وبينهما ترابط شديد يجعل أحدهما يزول بزوال الآخر، ويضعف بضعفه ويقوى بقوته – وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «التوحيد ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه، فأي شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه، فهو كأبيض ثوب يكون يؤثر فيه أدنى أثر، وكالمرآة الصافية جدًا

أدنىٰ شيء يؤثر فيها، ولهذا تشوشه اللحظة، واللفظة، والشهوة الخفية، فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده، وإلا استحكم وصار طبعًا يتعسر عليه قلعه»(١).

ومما يؤيد أهمية الجانب الأخلاقي في منهج السلف وارتباطه الوثيق بالعقيدة تضمين علمائهم هذه الجوانب فيما كتبوه من أصول أهل السنة والجماعة كالعقيدة الواسطية، والطحاوية وغيرها، ومن أمثلة ذلك قول الإمام الصابوني – رحمه الله تعالىٰ – في تقريره لعقيدة السلف: «ويتواصون بقيام الليل للصلاة بعد المنام، وبصلة الأرحام علىٰ اختلاف الحالات، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام والرحمة علىٰ الفقراء والمساكين والأيتام، والاهتمام بأمور المسلمين، والتعفف في المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمصرف والسعي في الخيرات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبدار إلىٰ فعل الخيرات أجمع، واتقاء شر عاقبة الطمع، ويتواصون بالحق والصبر»(٢).

ولتجلية أهمية ارتباط العقيدة بالأخلاق والأخلاق بالعقيدة في حياة الناس وبخاصة الدعاة منهم وطلبة العلم نقف الوقفات التالية.

---

(١) الفوائد ص ١٨٤.

(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني، تحقيق نبيل السبكي ص ٨٦.

الوقفة الأولىٰ: من المعلوم أننا عندما نتحدث عن منهج السلف رحمهم الله تعالىٰ فإنا لا نعني بذلك علمًا نظريًّا مجردًا في الذهن وتصديقًا مجردًا في القلب. كلا فلم يكن هذا منهجهم وإنما كان عقيدة وعبادة وأخلاقًا وسلوكًا.

وإن المتأمل في حياتنا معشر أهل السنة – في هذه العصور المتأخرة – يلاحظ بونًا شاسعًا، وانفصالاً كبيرًا – ما بين مكثر ومقل في ذلك – بين الجانب العلمي النظري والجانب السلوكي الأخلاقي؛ حيث أصبح من المعتاد أن يرىٰ الإنسان أحيانًا من نفسه أو من بعض إخوانه من الدعاة بعدًا في الجانب الخلقي عن أخلاق السلف وسلوكهم.

فمن اللازم إذن عند طرح منهج السلف والدعوة إليه أن يطرح شاملاً لمعتقدهم وفقههم، ولسلوكهم وأخلاقهم؛ فكما أنه لايقبل من أحد أن يلتزم بأخلاق السلف ويترك معتقدهم، فكذلك لا يسوغ فهم معتقدهم دون الالتزام بسلوكهم وأخلاقهم.

ولو أننا رجعنا إلىٰ سيرة سلفنا الصالح لوجدناها خير مثال لهذا المنهج المتكامل. فإذا ما تم لنا إدراك هذا الأمر والالتزام به فسوف تختفي من حياتنا – بإذن الله تعالىٰ – تلك الصور والمواقف المتناقضة.

نعم سوف لن نجد شخصًا علىٰ عقيدة السلف في توحيد الألوهية، والأسماء والصفات، ومحاربة البدع، ثم هو في نفس الوقت

يخالف سلوكهم باقترافه للظلم والكذب والغيبة والحقد والشحناء واتباع الأهواء.

وبعبارة أخرىٰ فإن تطبيق هذا المنهج كاملاً كفيل بإزالة هذه الازدواجية التي نعاني.

الوقفة الثانية:

إنه لا شيء يضبط السلوك ويزكي النفوس ويأطر النفس علىٰ محاسن الأخلاق وترك سيئها غير توحيد الله عز وجل والخوف منه سبحانه ورجاء ثوابه ومراقبته في السر والعلن والشعور باطلاعه عز وجل علىٰ خفايا القلوب ومنحنيات الدروب، وهذا كله لا يتأتىٰ إلا بالتربية علىٰ التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته ومقتضياتها والتعبد له سبحانه بها مما يكون له الأثر في ظهور آثارها علىٰ أخلاق العبد وسلوكه.

وإذا لم يوجد هذا الشعور وهذه التربية علىٰ العقيدة فإنه لا تنفع أي محاولة مهما كانت في تهذيب سلوك الناس، مهما وضع من النظم والقوانين والعقوبات، فغاية ما فيها ضبط سلوك الفرد أمام الناس فإذا غاب عن أعينهم ضاعت الأخلاق واضطربت القيم، وهذا هو الفرق في علاج انحرافات النفس البشرية والمجتمع الإنساني بين منهج الله عز وجل القائم علىٰ تربية الناس علىٰ العقيدة وبين المناهج الجاهلية البعيدة عن منهج الله عز وجل.

ومثالاً علىٰ ذلك ننقل ما كتبه سيد قطب رحمه الله تعالىٰ؛ عن تحريم الخمر وكيف عجزت أمريكا عن إقناع الناس بتركه بينما انتهىٰ المسلمون عن شربها بمجرد أن نهاهم الله عز وجل عنها.

يقول رحمه الله تعالىٰ: «أما في أمريكا، فقد حاولت الحكومة الأمريكية مرة القضاء علىٰ هذه الظاهرة فسنت قانونًا في سنة ١٩١٩ سمي قانون «الجفاف»! من باب التهكم عليه، لأنه يمنع «الري» بالخمر!، وقد ظل هذا القانون قائمًا مدة أربعة عشر عامًا حتىٰ اضطرت الحكومة إلىٰ إلغائه في سنة ١٩٣٣.

وكانت قد استخدمت جميع وسائل النشر والإذاعة والسينما والمحاضرات للدعاية ضد الخمر، ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد علىٰ ستين مليونًا من الدولارات، وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل علىٰ عشرة بلايين صفحة، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم من مدة أربعة عشر عامًا لا يقل عن ٢٥٠ مليون جنيه، وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس، وسجن كذلك ٥٣٢,٣٣٥ نفسًا، وبلغت الغرامات ١٦ مليون جنيه، وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة ملايين جنيه.. وبعد ذلك كله اضطرت إلىٰ التراجع وإلغاء القانون.

فأما الإسلام فقضىٰ علىٰ هذه الظاهرة العميقة في المجتمع الجاهلي

ببعض آيات من القرآن، وهذا هو الفرق في علاج النفس البشرية وفي علاج المجتمع الإنساني.. بين منهج الله، ومناهج الجاهلية قديمًا وحديثًا علىٰ السواء!

لقد تمت المعجزة؛ لأن المنهج الرباني أخذ النفس الإنسانية بطريقته الخاصة.. أخذها بسلطان الله وخشيته ومراقبته، وبحضور الله فيها حضوراً لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان.. أخذها جملة لا تفاريق.. وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة..

... فمتىٰ يدرك هذه الحقيقة البسيطة من يحاولون أن يضعوا لحياة الناس مناهج غير منهج العليم الخبير؟ وأن يشرعوا للناس قواعد غير التي شرعها الحكيم البصير؟ وأن يقيموا للناس معالم لم يقمها الخلاق القدير؟ متىٰ؟ متىٰ ينتهون عن هذا الغرور؟ (١)

ومثال آخر: رأيته بعيني وحز في نفسي وذلك أثناء رحلة من الرحلات الخارجية سافرت فيها في سنة من السنوات من بلدي، وكان معنا بعض العوائل ومن بينهم أسرة من زوج وزوجة وابن لهما، وكانت المرأة قبل إقلاع الطائرة من بلدها محتشمة متسترة قد غطت وجهها وشعرها وسائر جسدها بخمار وعباءة، ولكنها ويا للأسف ما إن أقلعت الطائرة واستوت في الفضاء حتىٰ لفت تلك العباءة ونزعت

---

(١) في ظلال القرآن عند الآية (٤٣) من سورة النساء.

ذلك الخمار ودستهما في حقيبتها اليدوية ثم أصبحت سافرة الرأس والشعر والوجه ! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وبعد رجوعي إلىٰ بلدي تكرر المنظر مرة أخرىٰ ولكنه في هذه المرة بشكل آخر إذ كان معنا بعض العوائل، وكان فيهم نساء في تبرج وسفور فاضح طيلة الرحلة، وما إن اقتربت الطائرة من الهبوط إلىٰ بلدهن المحافظ حتىٰ خرجت العباءات والخُمر من الحقائب واختفىٰ ما كان منهن من تبرج وسفور وزينة.

فعلىٰ أي شيء يدل هذا؟ إنه والله يدل علىٰ رقة الدين وضعف العقيدة، وبالتالي ضعفت الأخلاق أو ضاعت؛ إذ لو كانت العقيدة والخوف من الله عز وجل في القلوب لما تغير السلوك بمجرد تغير البيئة وزوال الرقيب من الناس، ولكنها العادات والتقاليد المنبتة عن العقيدة والتي لا تنشئ إلا النفاق والتربية المشوهة والازدواجية الكريهة.

ومن خلال هذين المثالين يتبن لنا أهمية التربية علىٰ العقيدة حيث إنها الأصل في صلاح النفوس والأخلاق وبدونها تفسد الأخلاق والقيم ولو صلحت بعض الأخلاق بدوافع أخرىٰ غير العقيدة كالعادات ورقابة القانون أو المصالح النفعية فإنها لا تدوم بل تزول بزوال المصلحة أو الرقيب.

ويحسن بنا في هذه الوقفة تنبيه المخدوعين من أبناء المسلمين

الذين انخدعوا ببعض الأخلاق النفعية التي يجدونها عند الكفار في ديارهم كالصدق في المواعيد والأمانة والوفاء بالعقود، إلىٰ أن هذه الأخلاق لم يكن دافعها الخوف من الله عز وجل ورجاء ثوابه في الدنيا والآخرة وإنما هي أخلاق نفعية مؤقتة يريدون منها مصالحهم الخاصة والدعاية لهم ولشركاتهم ولذلك فإنها لا تدوم معهم وإنما تدور معهم حسب مصالحهم بدليل أن هذه الأخلاق تنعدم ويحل محلها الأخلاق السيئة من الكذب والخداع إذا كانت مصالحهم تقتضي ذلك.

أما المسلم المتربي علىٰ العقيدة الربانية فأخلاقه ثابتة معه في ليله ونهاره في سره وعلانيته في سرائه وضرائه.

ومن هنا تأتي أهمية التربية علىٰ العقيدة في استنبات الأخلاق الفاضلة الثابتة.

الوقفة الثالثة:

تبين لنا في الوقفة السابقة أثر العقيدة في بناء الأخلاق الصالحة وتجنب مساوئها، وفي هذه الوقفة سنتعرف علىٰ العكس من ذلك ألا وهو أثر الأخلاق علىٰ العقيدة سلباً وإيجاباً.

إن التوحيد كما سبق أن ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه فأي شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه».

ومعنىٰ هذا أن الأخلاق السيئة والمعاصي تشوش التوحيد وتضعف صفاءه وكلما كثرت المعاصي والأخلاق السيئة وتراكمت علىٰ القلب دون توبة فإن صفاء التوحيد يتكدر بل يظلم وينطمس في النهاية والعياذ بالله تعالىٰ، والعكس من ذلك فإن الإتيان بمحاسن الأخلاق وتجنب مساوئها يزيد من صفاء التوحيد وبهائه وكماله.

ويوضح هذا المعنىٰ الحديث الذي رواه حذيفة رضي الله عنه في الفتن حيث يقول الرسول ﷺ: (**تعرض الفتن علىٰ القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلب أشربها نُكتَ فيه نكتة سوداء، وأيُّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتىٰ تصير علىٰ قلبين، علىٰ أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخّيًا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكراً إلا ما أُشْرِبَ من هواه... الحديث**)[1].

وإذا أردنا أن نتبين خطورة الأخلاق السيئة واستمرائها علىٰ العقيدة فلننظر إلىٰ أولئك الذين وقعوا في الأخلاق السيئة وأصروا عليها، سواء كان ذلك بألسنتهم كالغيبة والنميمة والكذب والفحش أو بأبصارهم كالنظر إلىٰ ما حرم الله عز وجل من النساء الأجنبيات أو

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان/ باب (٦٥) بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً... ١/١٢٨ (٢٣١).

صورهن الماجنة في مجلة أو تلفاز، أو بأسماعهم كسماع المعازف والكلام الفاحش... إلخ، حيث نرىٰ أن الحال تصل بهؤلاء إلىٰ حد الاستئناس بهذه المنكرات وإلفها وعدم إنكارها، وهذا بدوره قد يؤدي والعياذ بالله إلىٰ الرضىٰ بها وإقرارها، وهنا مكمن الخطر إذ لو كانت هذه المساوئ الخلقية تقارف وفي النفس كرهها وعدم الرضىٰ بها لكان الأمر أهون، إذ يرجىٰ لصاحبها التوبة والإقلاع أما إذا تحول الأمر إلىٰ إلفها والرضىٰ بها فقد يكون هذا ضرباً من الاستحلال الذي يقدح في أصل التوحيد والعقيدة، ومن هنا يظهر أثر الأخلاق الذميمة وفعل السيئات علىٰ العقيدة عندما تستمرأ ويداوم علىٰ فعلها من غير وازع ولا واعظ، وقد ينتهي الأمر بصاحبها إلىٰ الاستهزاء بالواعظين وعدم الاكتراث بوعظهم، كما قال المستكبرون من قوم هود: ﴿**سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ** ﴿١٣٦﴾﴾ [الشعراء: ١٣٦].

وكما قال إخوانهم في الغي من قوم شعيب: ﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ** ...﴾ [هود: ٩١].

وبهذا يظهر لنا خطورة الأخلاق السيئة علىٰ العقيدة وأن الأمر لا يتوقف في كون الأخلاق السيئة معصية فحسب، بل قد يؤدي في

النهاية إلىٰ الرضىٰ بها أو استحلالها، وذلك حينما يداوم عليها من غير واعظ ولا وازع، ولقد وجد من المسلمين الذين ألفوا النظر إلىٰ الصور المحرمة والفتنة بالمجلات الماجنة عندما وجهت له النصيحة بإبعادها عن نفسه وأهله قال: (إيش فيها) وماعلم المسكين أنه أتىٰ بكلمة شنيعة يحسبها هينة وهي عند الله عظيمة، لأنها كلمة تقرب من الاستحلال، والاستحلال يهدم أصل العقيدة وماذاك إلا من الإدمان والإصرار علىٰ هذه السيئات الذي أورث في النفس حبها وحب من يسهل أمرها وبغض من يصده عنها أو يصدها عنه والعياذ بالله تعالىٰ فهل يبقىٰ بعد ذلك من شك في أثر الأخلاق السيئة علىٰ العقيدة؟

أما أثر الأعمال الصالحة ومحاسن الأخلاق علىٰ زكاء العقيدة وقوة الإيمان والهداية فالأدلة علىٰ ذلك من كتاب الله عز وجل ومن واقع أحوال الناس كثيرة ومتضافرة ويكفي في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد: ١٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢].

ومن ذلك حديث حذيفة السابق ذكره حيث مر فيه أن القلب الذي ينكر المنكر ويرفض مساوئ الأخلاق يزداد بذلك صفاء وقوة وثباتًا أمام الفتن، والعكس من ذلك القلب الذي يقبلها ويشربها.

ومن خلال الأدلة المتضافرة في الكتاب والسنة أصَّل أهل السنة أصولهم الثابتة في أبواب الإيمان وقالوا: هو قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

أسأل الله عز وجل أن يهدينا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا هو.

والحمد لله رب العالمين

❁ ❁ ❁

المنارة الثامنة عشرة

من هو الحر؟ وما حقيقة الحريـة ؟

الحمـد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبـده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد.

فإن كثيراً من الألفاظ والمصطلحات التي يتناولها كثير من الناس اليوم تحتاج إلىٰ تحرير وتدقيق وإلىٰ أن تعرض علىٰ موازين الشرع وتضبط بضوابطه وبدون ذلك تختلط المفاهيم وتنحرف القيم وتختل النظرات والموازين وتسمىٰ الأشياء بغير أسمائها وحقيقتها مما ينشأ عنه الخلل في التصورات والانحراف في الأخلاق والقيم.

ومن بين هذه الألفاظ والمصطلحات التي تحتاج إلىٰ تحرير وضبط ووزن لها بالميزان الشرعي الذي ينطلق من عقيدة التوحيد: **مصطلح التحرر والحرية** فما هو الميزان الشرعي لهما؟ ومن هو الحر الحقيقي في ميزان الشرع العظيم؟

إن الحرية الحقيقية في ميزان الشرع هي حرية القلب. والعبودية الحقيقية هي عبودية القلب فمن أخلص عبوديته لله عز وجل وخلص من عبودية الخلق فهذا هو الحر حقيقة وذلك لتحرر القلب من عبودية

الخلق. والعكس من ذلك من ترك عبادة الله عز وجل أو قصر فيها فلا بد أن تسترق القلب عبودية المخلوق حسب ما تعلق به القلب من العبوديات لما سوى الله عز وجل، أما عبودية البدن أو حريته فليست هي الميزان الحقيقي للعبودية والحرية، إذ قد يكون الإنسان مملوكًا لإنسان آخر لكنه أخلص عبوديته لله عز وجل فصار بذلك حرًّا من عبودية ما سوى الله عز وجل، وقد يكون الإنسان سيداً ملكًا لكنه في الحقيقة مسترق القلب عبداً لشهوته أو هواه أو زوجته أو منصبه أو جنوده وأتباعه.

إذن فالمقصود بالحرية والعبودية هنا حرية القلب وعبوديته لا حرية البدن وعبوديته.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «... إذ الرق والعبودية في الحقيقة: هو رق القلب وعبوديته فما استرق القلب واستعبده، فالقلب عبده، ولهذا يقال: العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع ... وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته، ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته، وحريته عما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه... فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استعبد بدنه واسترق وأسر لا يبالي ما دام قلبه مستريحًا من ذلك مطمئنًا، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص، وأما إذا كان القلب

الذي هو ملك الجسم رقيقًا مستعبداً، متيمًا لغير الله فهذا هو الذل والأسر المحض والعبودية الذليلة لما استعبد القلب، فالحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب كما أن الغنىٰ غنىٰ النفس، قال النبي ﷺ: (**ليس الغنىٰ عن كثرة العرض وإنما الغنىٰ غنىٰ النفس**)[١][٢].

ويقول في موطن آخر: « وكل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو يهدوه خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك وإن كان في الظاهر أميراً لهم متصرفًا بهم، فالناظر ينظر إلىٰ الحقائق لا إلىٰ الظواهر، فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولوكانت مباحة له، يبقىٰ قلبه أسيـرًا لها تحكم فيـه وتتصـرف بما تريد، وهو في الظاهر سيـدها لأنه زوجها، وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها لا سيما إذا درت بفقره إليها وعشقه لها، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها فإنها تحكم فيه حينئذ حكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه.. »[٣].

ويقول في موطن ثالث عن مستعبد القلب لغير الله تعالىٰ: « ... فتارة تجذبه الصور المحرمة وغير المحرمة، فيبقىٰ أسيراً عابداً لمن لو اتخذه هو عبداً له لكان ذلك نقصاً وعيباً وذمًّا.

---

(١) البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

(٢) العبودية (٣٢ – ٣٨) باختصار.

(٣) المصدر السابق.

وتارة يجذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق.

وتارة يستعبده الدرهم والدينار وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها، فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدىً من الله.

ومن لم يكن مخلصاً لله عبداً له، قد صار قلبه مستعبداً لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون هو أحب إليه مما سواه، ويكون ذليلاً خاضعًا له، وإلا استعبدته الكائنات، واستولت علىٰ قلبه الشياطين، وكان من الغاوين إخوان الشياطين»(١).

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ: «إن الدينونة لله تعالىٰ تحرر البشر من الدينونة لغيره، وتخرج الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله وحده، وبذلك تحقق للإنسان كرامته الحقيقية وحريته الحقيقية، هذه الحرية وتلك الكرامة اللتان يستحيل ضمانهما في ظل أي نظام آخر غير النظام الإسلامي... والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله في كل جانب من جوانب الحياة، إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط»(٢).

---

(١) المصدر السابق.

(٢) في ظلال القرآن ٣/١٩٣٩، ١٩٤٠.

ويقول الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله تعالىٰ في تفسير ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥]:

«بتحقيق العلم بمدلول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ينجو الإنسان ويسلم من الرق المعنوي الذي هو أفظع وأنكىٰ من كل رق حسي؛ لأن الرق الحسي يشعر به صاحبه، فيتمنىٰ انتهاءه، ويسعىٰ لإزالته والتخلص منه حسب مجهوده، ولكن الرق المعنوي لا يشعر به صاحبه، بل علىٰ العكس ينقلب تصوره له تحرراً وتقدماً، فيتمادىٰ باستحسان حاله، دون أن يخالجه أدنىٰ شيء من الامتعاض والإحساس...

... والمسلم المؤمن الصادق لا يرتبط في جميع أحوال سيره بعجلة أحد ولا تبعية أحد لسلامته من الرق المعنوي بإخلاص مقاصده لله، وكونه مستعيناً به فقط، فلا يخشىٰ من أي قوة، ولا يستعين بكتلة علىٰ كتلة أخرىٰ؛ حتىٰ لا يصغي إلىٰ ما تمليه.

وأصحاب الرق المعنوي يعادون الحر الذي علىٰ هذه الشاكلة بدافع من طبيعتهم السافلة، أو بإملاء من أسيادهم الذين يركنون إليهم، ولا سبيل لتطهير قلوبهم من ذلك إلا بما يحرر أرواحهم من القيام بتحقيق مدلول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»[١] اهـ.

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم ١/ ٢٣١ باختصار.

مما سبق من النقولات النفيسة حول حقيقة الحر والحرية يتضح لنا ما يلي:

(١) أن الإنسان لا يبلغ الكمال في العزة والشرف والحرية حتىٰ يتخلص من عبودية البشر ويخلص عبادته لله وحده لا شريك له بكل ما تعني العبادة من معانيها الشاملة وقد وصل إلىٰ هذا الكمال أنبياء الله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام وعلى رأسهم إمامهم نبينا محمد ﷺ حيث خاطبه ربه سبحانه في أعلىٰ مقاماته التي وصل إليها: مقام تلقي الوحي، ومقام الإسراء بوصف العبودية باعتبارها أرقىٰ وأعظم وأشرف منزلة يرقىٰ إليها الإنسان.

قال تعالىٰ: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا** ۝١﴾ [الكهف: ١].

وقال عز وجل: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً**﴾ [الإسراء: ١].

(٢) أن من علق قلبه بمخلوق وأحبه وذل له وعلق عليه نفعه وضره فقد سقط في ربقة الرق والعبودية له، وأصبح أسير القلب لمن تعلق به ذليلاً له، وهذه حقيقة الرق والأسر والذل ولو كان فيما يظهر للناس سيداً حراً طليقاً، إذ المأسور حقيقة من أسر قلبه عن ربه والمحبوس من حبس قلبه عن عبادة ربه، وأسر القلب أعظم من أسر البدن.

والحر حقيقة هو من أخلص عبوديته لله عز وجل ورفض عبودية من سواه ولو كان مملوكًا أو مأسورًا أو مسجونًا أو تحت القهر والتعذيب، لأن غاية ما يملكه المالك أو الآسر والقاهر هو جسد المملوك أو المأسور أما قلبه فلا يستطيعون عليه صرفًا ولا تحويلا، لأن فيه قوة رفض لا يملكون التصرف فيها وذلك بما فيه من العبودية الخالصة لله عز وجل والتي أورثت صاحبها الحرية والعزة والشرف والاطمئنان، وهذا هو الذي يفسر لنا ذلك الثبات العظيم لأنبياء الله عز وجل ودعاته الصالحين وهم يتعرضون لصنوف الأذىٰ والسجن والتعذيب.

٣- إن الذين يتشدقون وينادون بالحرية ويطالبون بتحقيقها في المجتمعات ثم هم ينشدونها في نظم جاهلية بعيدة عن المصدر الحقيقي للحرية وهو عبادة الله عز وجل وحده لا شريك له، إنما هم ضالون مضلون صادون عن سبيل الله عز وجل، إذ لا حرية حقيقية إلا في نقل الناس من عبادة غير الله عز وجل إلىٰ عبادة الله وحده وبدون ذلك فهو الرق والاستعباد والذلة والشقاء مهما تشدق أصحاب هذه المطالب باسم حقوق الإنسان أو غيرها.

والواقع المرير الذي تعيشه البشرية اليوم أكبر شاهد علىٰ ذلك حيث تحولت البشرية اليوم إلىٰ استعباد القوي للضعيف والكبير للصغير، وذلك علىٰ مستوىٰ الأفراد والطوائف والدول، ثم إذا نظرنا إلىٰ الحرية التي يطالبون بها وجدنا معناها عندهم التحرر من عبادة الله

عز وجل وأوامره ونواهيه وانطلاق الناس في حياتهم كالبهائم بل أضل، وهم بذلك قد ركسوا في الرق الحقيقي والعبودية الدنسة، حيث أصبحوا عبيداً لشهواتهم وكبرائهم ومناصبهم ونسائهم، فاستبدلوا بعبادة الله عز وجل التي فيها العزة والكرامة والحرية عبادة بعضهم لبعض وعبادة الأهواء حيث الذلة والمهانة والرق الحقيقي.

٤- ويحسن بهذه المناسبة التعريج على ما يسمى ‹بتحرير المرأة› هذا المصطلح الخبيث الذي يرفعه اليوم المتبعون للشهوا ت ويريدون أن يميلوا بالناس ميلاً عظيماً، فماذا يقصدون بتحرير المرأة ؟

إن الجواب أحسبه قد صار واضحًا في ضوء ما سبق تقريره حول التحرر والحرية.

إنهم يقصدون بتحريرها هنا ذلك المفهوم الجاهلي الدنس الذي يرمي إلى أن تتفلت المرأة من عبادة ربها عز وجل ومن كل فضيلة وعفة وحياء لتصبح مستعبدة رقيقة لشهوات الشياطين وبيوت الأزياء وصيحات الموضات التي تخلع عن المرأة أجمل شيء ركبه الله عز وجل فيها وهو حياؤها وعفتها، فهل هذا هو تحرير المرأة أو هو إذلالها واستعبادها واسترقاقها؟

إن التحرر الحقيقي للمرأة ولغيرها لا يكون إلا في هذا الدين الذي جاء لتحرير الإنسان من عبودية الأشخاص والأصنام والأهواء إلى

عبودية الله عز وجل الواحد القهار والتي فيها وحدها العزة والكرامة والحرية والتحرير.

يتحدث سيد قطب رحمه الله تعالىٰ واصفًا بعض ما تتعرض له المرأة المعاصرة من الذلة والعبودية والاسترقاق فيقول:

(... هذه الأزياء والمراسم التي تفرض نفسها علىٰ الناس فرضًا، وتكلفهم أحيانًا ما لا يطيقون من النفقة، وتأكل حياتهم واهتماماتهم، ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم. ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها.. أزياء الصباح، وأزياء بعد الظهر، وأزياء المساء.. والأزياء القصيرة، والأزياء الضيقة، والأزياء المضحكة! وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف.. إلىٰ آخر هذا الاسترقاق المذلّ... من الذي يصنعه ومن الذي يقف وراءه؟ تقف وراءه بيوت الأزياء. وتقف وراءه شركات الإنتاج! ويقف وراءه المرابون في بيوت المال والبنوك...)[1] عليهم من الله ما يستحقون.

❁ ❁ ❁

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢١٩.

المنارة التاسعة عشرة

ضع نفسك مكانه

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد.

روىٰ الذهبي رحمه الله في السير عن عقيل، ومَعْمَر، عن الزهري، حدثني عروة أن المِسْوَرَ بن مخرَمة أخبره أنه وفد علىٰ معاوية، فقضىٰ حاجته، ثم خلا به، فقال: يا مسور! ما فعل طعنُك علىٰ الأئمة؟ قال: دعنا من هذا وأحسن. قال: لا والله، لتكلمني بذات نفسك بالذي تعيب عليَّ. قال مسور: فلم أترك شيئًا أعيبه عليه إلا بينت له. فقال: لا أبرأ من الذنب. فهل تعُدُّ لنا يا مسور ما نلي من الإصلاح في أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها، أم تعُدُّ الذنوب، وتترك الإحسان؟ قال: ما تُذكر إلا الذنوب. قال معاوية: فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه، فهل لك يا مسور ذنوب في خاصتك تخشىٰ أن تُهلكك إن لم تُغفر؟ قال: نعم، قال: فما يجعلك الله برجاء المغفرة أحقَّ مني، فو الله ما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي، ولكن والله لا أخيَّر بين أمرين بين الله وبين غيره، إلا اخترت الله علىٰ ما سواه، وإني لعلىٰ دين يقبل فيه العمل ويجزىٰ فيه بالحسنات، ويجزىٰ فيه بالذنوب إلا أن يعفو الله

عنها. قال: فخصمني. قال عروة: فلم أسمع المسور ذكر معاوية إلا صلىٰ عليه[١].

من هذا الحوار الجميل المؤدب بين صحابيين جليلين من أصحاب النبي ﷺ قد كان في نفس كل منهما شيء علىٰ الآخر نستنبط أمراً مهمًّا في التربية ومعالجة الأخطاء لو سرنا عليه في عتاب بعضنا لبعض لاختفت كثير من مفسدات الأخوة وذات البين ولسلمت القلوب المخلصة من الإحن والأحقاد والشحناء والأهواء.

وهذا الأسلوب التربوي المعني هنا مأخوذ من الحوار السابق وذلك لما ذكر المسور بن مخرمة لمعاوية رضي الله عنهما كل ما يعرفه من أخطاء معاوية. قال له معاوية رضي الله عنه: فهل لك يا مسور ذنوب في خاصتك تخشىٰ أن تهلكك إن لم تغفر؟ قال: نعم، فقال معاوية: فما يجعلك برجاء المغفرة أحق مني، فو الله ما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي.. إلخ.

فهذا هو الشاهد من هذا الحوار المناسب لهذه المقالة المعنون لها بـ(ضع نفسك مكانه).

وعندما يمارس الواحد منا هذا الأسلوب التربوي في عتابه للناس ومعالجة أخطائهم[٢] فإن الوئام والألفة ستحل محل الفرقة والشحناء

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٥١.

(٢) والمقصود بالأخطاء هنا تلك التي تحصل من الإنسان بحكم ضعفه وتغلب هواه عليه أحيانًا وتكون فلتة منه وليست إصراراً ومكابرة وعناداً.

والبغضاء. وهذا الأسلوب ينفع مع مختلف طبقات الناس وشرائحهم كما يتضح ذلك من الصور التالية:

● ما يكثر من الخلافات العائلية في كثير من البيوت وذلك بين الزوج وزوجته، أو بين الوالد وولده، أو بين الأخ وأخيه، أو بين الرجل وقرابته، حيث تؤدي كثير من هذه الخلافات بفعل الممارسات الخاطئة لعلاج الخطأ والأسلوب الغالط للعتاب إلىٰ نهايات مؤسفة قد تكون طلاقًا أو قطيعة وهجرانًا أو ظلمًا وعدوانًا.

بينما لو أخذ بالأساليب الشرعية لمعالجة الخطأ ومن بينها هذا الذي طبقه معاوية رضي الله عنه وعبرت عنه بمصطلح (ضع نفسك مكانه) أقول: لو طبق هذا الأسلوب مع الأساليب الشرعية الأخرىٰ واختفت حظوظ النفس لساد الوئام ووضع الخطأ في حجمه الطبيعي وأمكن محاصرته وعلاجه.

فمثلاً لو أن زوجة أخطأت علىٰ زوجها أو في بيتها خطأً معينًا وتأكد الزوج من ذلك فإن مما يخفف غضب الزوج وشدة عتابه لزوجته أن يبحث عن الملابسات التي أحاطت بالزوجة حتىٰ وقعت فيما وقعت فيه من الخطأ ثم يضع نفسه مكان زوجته عندما أحاطت بها هذه الملابسات فماذا عساه أن يعمل. ثم ينظر إلىٰ ضعف عقل المرأة وطبيعتها، ثم يحاسب نفسه فيما لو وقع في نفس الخطأ الذي وقعت

فيه زوجته هل محاسبته ومعاتبته لنفسه بنفس القوة والنقد الذي يوجهه إلىٰ زوجته، إن كل هذه التساؤلات ستقلل من حجم الخطأ وتدفع الزوج إلىٰ معالجته معالجة شرعية تتسم بالعدل والتأني والرغبة في الإصلاح وليس لمجرد التشفي وتنفيس الغيظ.

ولا يعني هذا التغاضي عن الأخطاء وتبريرها وعدم إصلاحها كلا. ولكن المقصود معالجتها بعدل وإنصاف ووضع النفس مكان من صدر منه الخطأ والملابسات التي أحاطت بصاحب الخطأ حتىٰ توضع الأمور في حجمها الطبيعي من غير تهويل وتضخيم.

ومثل هذا يقال للزوجة في معالجتها لخطأ زوجها، وللوالد مع ولده والقريب مع قريبه وكذلك ما يحصل بين عامة الناس وأصحاب المهن المشتركة من خلافات وأخطاء.

● ما يحصل من بعض الأخطاء التي يقع فيها بعض العلماء أو طلبة العلم أو الدعاة والتي ينجم عنها لغياب المعالجة الشرعية العادلة كثير من العدوان والشحناء والغيبة والأحقاد.

ولو أننا طبقنا هذا الأسلوب المشار إليه آنفًا في معاجة الخطأ، ووضع الناقد نفسه مكان صاحب الخطأ وبحث عن الملابسات التي أحاطت به في خطئه لتطامن الناقد وعذر صاحب الخطأ إن وجد له عذراً أو أنه يضع خطأه في حجمه الطبيعي من غير تضخيم وتهويل،

وكذلك لو حاسب الناقد نفسه فيما لو صدر منه الخطأ الذي صدر من العالم أو الداعية الفلاني فهل مؤاخذته لنفسه بنفس القوة التي يوجهها لغيره؟ لأن مثل هذه المحاسبة تعد من أسباب التطامن والإنصاف، وكما قال معاوية للمسور - رضي الله عنهما - عندما عرفه ببعض أخطائه قال له: فهل لك يا مسور ذنوب في خاصتك تخشىٰ أن تهلكك إن لم تغفر؟ قال: نعم.

فكذلك الدعاة وأهل العلم في معالجتهم لأخطاء بعضهم، فلو أن الناقد انتبه لنفسه وما هي عليه من الأخطاء والذنوب لكان في ذلك من التطامن والتواضع مع صاحب الخطأ ما يجعل الناقد يضع الخطأ في حجمه المعقول ويعامل صاحب الخطأ بالعدل المحبة والإصلاح بعيداً عن حظوظ النفس والأهواء، فإذا انضاف إلىٰ ذلك وجود الخير الكثير والإصلاح عند الشخص المنتقد صار هذا أيضًا من دواعي اضمحلال خطئه في بحر حسناته.

وهذا ما أشار إليه معاوية رضي الله عنه بقوله للمسور رضي الله عنه: فو الله ما ألي من الصلاح أكثر مما تلي.

ولا يعني هذا تمرير الأخطاء وتبريرها وإنما يعني معالجتها معالجة عادلة تضع الخطأ في مكانه الطبيعي ولا تُنسىٰ حسنات المخطئ كما لا ينسىٰ الناقد أن له عليه ذنوبًا كما علىٰ غيره، والسعيد من لم تشغله

عيوب الناس عن عيوب نفسه .

● ما يصدر من أهل الابتلاء كالمرضىٰ والفقراء والمسجونين والمهمومين والمحزونين وغيرهم من المواقف التي يعدها أهل الرخاء والعافية مواقف خاطئة لكن ما إن تطبق القاعدة المشار إليها آنفًا في معالجة الخطأ وهي قاعدة (ضع نفسك مكانه) فيضع من هو معافًا في دينه ودنياه نفسه مكان المبتلىٰ ويحاول أن يتصور الظروف التي تحيط بصاحب المصيبة إلا ولابد أن يكون لذلك أثر علىٰ النظرة إلىٰ هذه المواقف التي يعتبرها خاطئة فإما أن يظهر له أنه معذور بسبب الملابسات التي أحاطت به فكما قيل ويل للشجي من الخلي، والشاهد يرىٰ ما لايرىٰ الغائب، أو أنه يظهر له الخطأ في حجمه الطبيعي فيعالجه معالجة من يعرف ملابساته وأسبابه التي أدت إلىٰ ضعف المصاب وقيامه بمواقف خاطئة تقدر بقدرها وتعالج معالجة من يعرف ضعف الإنسان أمام الأقدار المؤلمة إلا من رحم الله تعالىٰ، ولا يدري المعافىٰ لو كان مكان المصاب ماذا عساه أن يفعل .

نسأل الله عز وجل الثبات والعافية .

● كما تنفع هذه القاعدة في مساعدة المحتاجين والملهوفين ممن تعوزهم الحاجة إلىٰ المال أو الجاه أو تفريج هم أو إغاثة ملهوف قد انقطعت به السبل أو جائع أو عطشان أو غريب تائه عن الطريق أو

مسافر قد تعطلت دابته .. الخ.

ذلك أن الإنسان عندما يضع نفسه مكان أصحاب هذه الحاجات ويتصور حجم المعاناة التي يعانيها الملهوف والمكروب والجائع والمنقطع.. إلخ. كما يتصور أيضًا وقع الإعانة لهؤلاء في نفوسهم وأثرها عليهم وأجرها عند الله عز وجل، كل ذلك مما يجعل الإنسان يهب لقضاء حاجات الملهوفين والمحتاجين.

ولا يظهر التفاعل مع حاجات المحتاجين كما يظهر عند من مرت به حاجة من الحاجات في حياته كمرض احتاج فيه إلىٰ من يواسيه ويقوم برعايته فيه أو فقير احتاج فيه من يساعده ويهتم بحاله فيه أو انقطعت به دابته أو سيارته فاحتاج من يصلحها له ويساعده علىٰ مواصلة الطريق.. الخ

إن كل من مرت به حاجة من الحاجات ثم عافاه الله منها ورأىٰ بعد ذلك من وقع فيما وقع فيه من الحاجة فإن هذا من أكبر الدوافع التي تدفع إلىٰ مساعدة المحتاج وإغاثة الملهوف لأنه قد وضع نفسه مكان المحتاج وتصور الظرف الذي يمر به المحتاج وأنه قد مر عليه مثله.

وإن هذه القاعدة تنفع مع كل ذي كبد رطبة وليست مع الإنسان وحده، وإذا أخلص العبد في إعانته للمحتاج وأراد وجه الله عز وجل فإن الله سبحانه يشكر له صنيعه ويجازيه عليه الجنة،

فعـن أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: (**بينما رجل يمشي بطريق اشتـد عليه العطش، فوجـد بئرًا فنزل فـيه فشـرب، ثم خرج، فإذا كلب يلـهث، يأكل الثـرىٰ من العطش، فـقـال الرجل: لقـد بلـغ هذا الكلـب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فـنزل البئـر فمـلأ خفـه ماءً ثم أمسكه بفيه حتىٰ رقي، فسقىٰ الكلب، فشكر الله له فغفـر له، قالوا: يا رسـول الله إن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: في كل كبد رطبة أجر**)[1] .

وكـما يظهر مـن هـذا الحديث نلاحظ أن الرجل الذي سـقي الكلب قد طبق القاعدة التي نحن بصددها وهي (ضع نفسك مكانه) .

فـهل يعي هذا الأمر أولئك الذي لا يبـالون بحاجات المحتـاجين ولا بإغـاثة الملهـوفين المكـروبين؟ وهلا حـمـدوا الله عـز جل وشكروه علىٰ العـافية ووضعوا أنفسهـم مكان المحتاجين ومعاناتهم؟ فإن الله عز وجل قادر علىٰ أن يعافي غيرهم ويبتليهم.

نسأل الله العافية والسلامة.

❁ ❁ ❁

---

(١) البخاري: ٥ / ٣١، مسلم (٢٢٤٤).

المنارة العشرون

فتنة مسايرة الواقع

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد.

فإن من علامة توفيق الله عز وجل لعبده المؤمن أن يرزقه اليقظة في حياته الدنيا، فلا تراه إلا حذراً محاسباً لنفسه خائفاً من أن يزيغ قلبه أو تزل قدمه بعد ثبوتها، وهذا دأبه في ليله ونهاره، يفر بدينه من الفتن ويجأر إلىٰ ربه عز وجل في دعائه ومناجاته يسأله الثبات والوفاة علىٰ الإسلام والسُّنة غير مبدل ولا مغير.

وإن خوف المؤمن ليشتد في أزمنة الفتن التي تموج موج البحر والتي يرقق بعضها بعضاً، وما إخال زماننا اليوم إلا من هذه الأزمنة العصيبة التي تراكمت فيها الفتن وتزينت للناس بلبوسها المزخرف الفاتن ولم ينج منها إلا من ثبته الله عز وجل وعصمه؛ نسأل الله عز وجل أن يجعلنا منهم.

ومن هذه الفتن الشديدة التي تضغط علىٰ كثير من الناس

فيضعفون أمامها: **فتنة مسايرة الواقع**(١)، وضغط الفساد والمشي مع العادات ومراعاة رضىٰ الناس وسخطهم؛ وهي فتنة لا يستهان بها فلقد سقط فيها كثير من الناس وضعفوا عن مقاومتها، والموفق من ثبته الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية: «تحت هذه الآية كنز عظيم، من وفق لمظنته وأحسن استخراجه واقتناءه وأنفق منه، فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين. فإن لم يثبته، وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما. وقد قال تعالىٰ لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿ **وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤)** ﴾ [الإسراء: ٧٤]. وقال تعالىٰ لأكرم خلقه: ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [الأنفال: ١٢].

وفي الصحيحين من حديث البجلي قال: (**وهو يسألهم ويثبتهم**)(٢) وقال تعالىٰ لرسوله: ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا**

---

(١) سبق التفصيل في أنواع الفتن وصورها في الرسالة الثانية عشرة من سلسلة الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم (ففروا إلىٰ الله)، ولما كان النقص من طبيعة البشر فقد فاتني هنالك أن أتحدث عن هذه الفتنة.

(٢) قال صاحب بدائع التفسير: لم أقف عليه في الصحيحين لكنه عند أحمد =

﴿نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت» اهـ[١].

وإذا كان الرسول ﷺ قد قال له ربه تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾، فمن سواه من الناس أحوج إلى التثبيت من ربه تعالى وفي هذا تأكيد على أهمية الدعاء وسؤال من بيده التثبيت والتوفيق وهو الله سبحانه وتعالى.

المعنى اللغوي للمسايرة: قال في لسان العرب[٢]: سايره أي جاراه فتسايرا، وسايره: سار معه؛ والمسايرة مصدر ساير.

ذكر بعض الصور لفتنة مسايرة الواقع والتقليد الأعمى

● إن فتنة مسايرة الواقع والتأثر بما عليه الناس لتشتد حتى تكون سببًا في الوقوع في الشرك الموجب للخلود في النار عياذًا بالله تعالى، وذلك كما هو الحال في شرك المشركين الأولين من قوم نوح وعاد وثمود والذين جاءوا من بعدهم من مشركي العرب، فلقد ذكر لنا القرآن الكريم أنهم كانوا يحتجون على أنبيائهم عندما واجهوهم بالحق ودعوهم إلى التوحيد وترك الشرك بأنهم لم يسمعوا

٢/٣٦٨، والترمذي ٤/٥٩٦، وقال: حسن صحيح.

(١) بدائع التفسير ٣/١٧.

(٢) ٣/٢١٦٨.

بهـذا في آبائهـم الأولين. وكـانوا يتـواصـون باتبـاع مـا وجـدوا عليـه آباءهم ويحرض بعضـهم بعضًا بذلك ويثيرون نعـرة الآباء والأجداد بينهـم.

أخبر الله عز وجل عن قوم نوح عليه الصلاة والسلام قولهم: ﴿**مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ** ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقال تعالىٰ عن قوم هود: ﴿**قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا**﴾ [الأعراف: ٧٠].

وقال تعالىٰ عن قوم صالح: ﴿**قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** ... الآية﴾ [هود: ٦٢].

وقال سبحانه وتعالىٰ عن قوم فرعون: ﴿**قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ [يونس: ٧٨].

وقال عن مشركي قريش: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ [البقرة: ١٧٠].

والآيات في ذلك كثيرة، والمقصود التنبيه إلىٰ أن تقليد الآباء ومسايرة ما عليه الناس وألفوه لهو من أشد أسباب الوقوع في الكفر والشرك، وقد يبين الحق للناس ولكن لوجود الهوىٰ وشدة ضغط الواقع وضعف المقاومة يؤثر المخذول أن يبقىٰ مع الناس ولو كان يعتقد أنهم علىٰ باطل وأن ما تركه وأعرض عنه هو الحق المبين، وإلا فما

معنىٰ إصرار أبي طالب عم الرسول ﷺ علىٰ أن يموت علىٰ عقيدة عبد المطلب الشركية مع قناعته بأن محمداً ﷺ رسول الله والحق معه لولا الهوىٰ ومسايرة ما عليه الآباء وخوفه من مصادمتهم وتضليلهم نعوذ بالله تعالىٰ من الخذلان.

وإذا جئنا لعصرنا الحاضر وبحثنا عن أسباب ضلال علماء الضلال الذين زينوا للناس الشرك والخرافة والبدع الكفرية، رأينا أن من أهم الأسباب مسايرتهم للناس وميلهم مع الدنيا ومناصبها وظنهم أنهم بمصادمة الناس سيخسرون دنياهم ووجاهتهم بين الناس فآثروا الحياة الدنيا علىٰ الآخرة وسايروا الناس مع اعتقادهم ببطلان ما هم عليه، وكذلك الحال لسائر الناس المقلدين لهم في الشرك والخرافة والسحر والشعوذة ولو ظهر لأحدهم الحق فإنه يحتج بما عليه أغلب الناس فيسير معهم ويضعف عن الصمود أمام باطلهم إلا من رحم الله من عباده الذين لا يقدمون علىٰ مرضات الله تعالىٰ شيئاً، ولا يتركون الحق لأجل الناس ولا يسايرونهم علىٰ ما هم عليه من ضلال وفساد، بل يتذكرون قول الرسول ﷺ: (**من التمس رضا الله في سخط الناس رضي الله عنه وأرضىٰ عنه الناس، ومن التمس رضا الناس في سخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس**)[1].

---

(١) الترمذي في الزهد، تحفة الأحوذي: ٢٠٢٧/ ٢٠٢٨، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٩٧).

والأصل في مسايرة الناس علىٰ ضلالهم وتنكب الحق هو الهوىٰ المتغلب علىٰ النفوس بحيث يطمس البصيرة حتىٰ ترىٰ المتبع لهواه يضحي بروحه في سبيل هواه وباطله وهو يعلم نهايته البائسة، ومن كانت هذه حاله لا تنفعه المواعظ ولا الزواجر.

جاء في الموافقات للشاطبي رحمه الله تعالى: «فكذلك صاحب الهوىٰ إذا ضل قلبه وأشرب حبه لا تعمل فيه الموعظة ولا يقبل البرهان ولا يكترث بمن خالفه»(١).

● أما ما يتعلق بما دون الكفر من فتنة مسايرة الواقع فهي كثيرة ومتنوعة اليوم بين المسلمين، وهي تتراوح بين البدع الغير مكفرة والوقوع في كبائر الذنوب والتساهل بصغائرها أو الترخص في الدين وتتبع زلات العلماء، لتبرير المخالفات الشرعية الناجمة عن مسايرة الركب وصعوبة الخروج من المألوف واتباع الناس إن أحسنوا أو أساءوا.

ومن هذه حاله ينطبق عليه وصف الإمَّعة الذي نهىٰ النبي ﷺ عنه حيث قال: (**لا تكونوا إمَّعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا**)(٢)، قال الشارح في تحفة الأحوذي: «الإمعة هو الذي يتابع

---

(١) الموافقات للشاطبي ٢/٢٦٨.

(٢) تحفة الأحوذي ٦/١٤٥. وقال الترمذي حسن غريب، رقم الحديث (٢٠٧٥).

كل ناعق ويقـول لكل أحـد أنا مـعك لأنه لا رأي لـه يرجع إليـه، وقـال صاحب الفائق: ومعناه: المقلد الذي يجعل دينه تابعًا لدين غيـره بلا رؤية، ولا تحصيل برهان.

وقال القـاري ما لفظه: وفيـه إشعار بالنهي عن التـقليد المجرد حتىٰ في الأخلاق فضلاً عن الاعتقادات والعبادات.

وقـال صاحب القـاموس: ... وقيل الإمعة: هو الرجل الذي يكون لضـعف رأيه مع كـل واحـد، والمراد هنا مـتىٰ تكون مع مـا يـوافق هواه ويلائم أرب نفسه وما يتمناه»[١] أهـ.

والفتنة بمسايرة الواقع وما اعتاده النـاس كـثيرة في زماننا اليوم لا يسلم منها إلا من رحم الله عز وجل وجاهد نفسه مجاهدة كبيرة؛ لأن ضغط الفـساد ومكر المفسـدين وترويض النـاس عليـه ردحًا من الزمان جعل القابض علىٰ دينه اليوم المستعصي علىٰ مسايرة الواقع في جهـاد مرير مع نـفسـه والناس، ولعل هذا الزمان هو تأويل قـول الرسـول ﷺ: (**يأتي علىٰ الناس زمان الصابر فيهم علىٰ دينه كالقابض علىٰ الجمر**)[٢].

---

(١) تحفة الأحوذي ٦/١٤٥.

(٢) تحفة الأحوذي (٢٣٦١) ٦/٥٣٩، وقال الترمذي: حديث غريب. وقال محقق جامع الأصول: له شواهد يرتقي بها.

قال صاحب التحفة: (**يأتي علىٰ الناس زمان الصابر فيهم**) أي من أهل ذلك الزمان (**علىٰ دينه**) أي علىٰ حفظ أمر دينه بترك دنياه (**كالقابض**) أي كصبر القابض في الشدة ونهاية المحنة (**علىٰ الجمر**) جمع جمرة هي شعلة من نار... وقال القاري: الظاهر أن معنىٰ الحديث كما لا يمكن القبض علىٰ الجمرة إلا بصبر شديد وتحمل غلبة المشقة كذلك في ذلك الزمان لا يتصور حفظ دينه ونور إيمانه إلا بصبر عظيم)[١] أهـ.

وإن مما يعين العبد علىٰ هذه المشقة الشديدة والصبر العظيم هو عظم الأجر الذي يناله هذا القابض علىٰ دينه المستعصي علىٰ ضغط الواقع ومسايرة الناس وما ألفوه، ويكفي في ذلك قوله ﷺ: (**إن من ورائكم أيام الصبر للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه خمسين منكم قالوا: يا نبي الله أو منهم، قال: بل منكم**)[٢].

وفيما يلي ذكر بعض الصور لفتنة مسايرة الواقع في زماننا اليوم أنبه نفسي إليها كما أنبه إليها إخواني المسلمين بعامة وأخص منهم:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أبو داود في الملاحم (٤٣٤١)، والترمذي (٣٥٠٨) وصححه الألباني في السلسلة (٤٩٤).

فئة الدعاة وأهل العلم وما يجب أن يحذروه من فتنة مسايرة الواقع:

إن أهل العلم والداعين إلىٰ الله عز وجل لمن أشد الناس تعرضاً لفتنة المسايرة وذلك لكثرة الفساد وتنوعه وتسلط شياطين الإنس والجن علىٰ أهل الخير بالإيذاء والوسوسة وتأويل الأمور.. إلخ، مما قد يعرض العالم أو الداعية إلىٰ التنازلات والمداهنات إرضاءً للناس أو اتقاء لسخطهم أو رضاً بالأمر الواقع سواء كان ذلك بتأويل أو بغير تأويل.

وإن سقوط العالم أو الداعية في هذه الفتنة ليس كسقوط غيره؛ ذلك أن غيره من عامة الناس لا تتعدىٰ فتنته إلىٰ الآخرين بخلاف العالم أو الداعية فإن فتنته تتعدىٰ إلىٰ غيره، لأن الناس يرون فيهم القدوة والشرعية.

إن الدعاة إلىٰ الله عز وجل وأهل العلم هم نور المجتمعات وصمام الأمان بإذن الله تعالىٰ، فإذا وقع منهم من وقع في مسايرة الواقع والرضىٰ بالأمر الواقع فمن للأمة ينقذها ويرفع الذل عنها؟ هذا أمر يجب أن يتفطن له كل منتسب إلىٰ الدعوة والعلم ويتفقد نفسه ويحاسبها ويسعىٰ لإنجاء نفسه وأهله بادئ ذي بدء حتىٰ يكون لدعوته بعد ذلك أثر علىٰ الناس وقبول لها عندهم. أما إذا أهمل الداعية نفسه وسار مع ما ألفه الناس وصعب عليه الصمود والصبر فإن الخطر كبير علىٰ النفس والأهل والناس من حوله.

إن المطلوب من الدعاة والعلماء في مجتمعات المسلمين هو تغيير المجتمعات وتسييرها إلىٰ ما هو أحسن لا مسايرتها ومداهنتها. هذه والله هي مهمة الأنبياء والمصلحين من بعدهم وهذه هي الحياة السعيدة للعالم والداعية، وإلا فلا معنىٰ لحياة الداعية والعالم ولا قيمة لها إذا هو ساير الناس واستسلم لضغوط الواقع وأهواء الناس.

إن العالم والداعية لا قيمة لحياتهما إلا بالدعوة والتغيير والتسيير ولا شك أن في ذلك مشقة عظيمة. ولكن العاقبة حميدة بإذن الله تعالىٰ في الدارين لمن صبر وصابر واستعان بالله عز وجل.

وفي ذلك يتحدث محمد أمين المصري رحمه الله تعالىٰ عن رجل العقيدة الذي يسعىٰ لتغيير الواقع وتسييره في مرضاة الله عز وجل، وليس مسايرته في مرضات النفس والناس فيقول: «وأهم شيء في الموضوع تكوين رجل العقيدة، ذلك الإنسان الذي تصبح الفكرة همه: تقيمه وتقعده ويحلم بها في منامه وينطلق في سبيلها في يقظته، وليس لدينا بكل أسف من هذا النوع القوي والعبقري، ولكن لدينا نفوسًا متألمة متحمسة مستعدة بعض الاستعداد، ولا بد للنجاح من أن ينقلب هؤلاء إلىٰ مُثلٍ قوية تعي أمرها، وتكمل نقصها ليتم تحفزها الذي ينطلق من عدم الرضا بالواقع والشعور بالأخطاء التي تتعاقب، وينتهي باستجابة لأمر الله ونداءات الكتاب الحكيم ومراقبة وعد الله ووعيده، والتأسي بسيرة الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه...

ولا بد لنا من وصف عاجل وتحديد مجمل لرجل العقيدة.

إن السلوك الأول الفطري الذي يأتي به المخلوق إلىٰ هذه الدنيا، هو السلوك الغريزي، وهذا السلوك يظل لدىٰ الإنسان فعالاً مؤثراً حياة المرء كلها.

يولد الطفل وبعد ساعات قليلة يسترجع وعيه ويأخذ بالبحث عن ثدي أمه مصدر طعامه وشرابه وتظل هذه الغريزة فعالة قوية لديه حياته كلها، وبعد زمن يسير تبدو لدىٰ الطفل غريزة الخوف، ثم غريزة الغضب، ثم غريزة الظهور والاستعلاء، وما إلىٰ ذلك.

ويسلك الطفل في سنيه الأولىٰ مستجيباً لغرائزه وحدها، فإذا نما قليلا لم يعد يقبل منه ذلك السلوك الغريزي الذي كان يقبل أولا، بل يؤخذ الطفل بالتربية والتهذيب فيعلم بأنه لا يحسن به أن يمد يده إلىٰ الطعام كلما اشتهاه وأنه ليس له أن يمد يده إلىٰ كل ما يجتذب نظره فإذا أطاع أثيب وإذا عصا عوقب، وهكذا ينتقل الطفل فيجد نفسه أمام عامل آخر يدفعه إلىٰ الفعل أو الترك، هذا العامل الثاني هو الثواب والعقاب وهكذا تعدل الغرائز وتقوم بالثواب والعقاب ثم يزداد نموه فيجد عاملاً جديداً غير عامل الثواب والعقاب وهو عامل الرضا والسخط، رضىٰ الناس الذين حوله وسخطهم ورضا المجتمع الذي يعيش فيه وسخطه، ولهذا الدافع الجديد سلطان لا يقل عن سلطان الدافع الغريزي إن لم يكن أقوىٰ منه، فنجد المجتمع يتحكم في سلوكنا

وعاداتنا وأعمالنا وملبسنا ومطعمنا ومشربنا فيفرض علينا أموراً ويحرم علينا أخرىٰ سواء رضينا أم سخطنا، وكثير من الناس يحكمهم المجتمع طيلة عمرهم وليس ما يسمىٰ خوف العيب والعار إلا خوفًا من المجتمع.

وفي مجتمع كمجتمعنا لا يليق بشيخ محترم أن يحمل حاجاته إلىٰ منزله مع أن ذلك مما يثاب المرء عليه، وفي مجتمع كمجتمعنا لا بد من التبذير ولا بد من الترف، فالأرائك في المنزل لا يحسن أن تكون من خشب رخيص وفراش بسيط بل لا بد من المغالاة بأثمانها وذلك محرم في عرف الشارع، لأنه تبذير للأموال ووضعها في غير موضعها، ولكن سخط المجتمع أكبر عند الناس من الحلال والحرام، وقد قال عليه الصلاة والسلام.

(ومن التمس رضا الناس في سخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس)[١].

ويتحكم المجتمع في الأزياء تحكمًا يقارب عبادة الوثن.

كثيرون أولئك الذي يعيشون من أجل رضا الناس وخوفًا من سخطهم، لا يستطيعون التفلت من هذه القيود حياتهم كلها، وهذا المستوىٰ يرتبط بالمستوىٰ الغريزي الأول ذلك أن الإنسان اجتماعي بفطرته يعيش مع الناس ويحرص علىٰ رضاهم.

---

(١) سبق تخريجه ص ١٥٥.

وقليل أولئك الذين يستطيعون أن يتجاوزوا هذا المستوىٰ ويتخطوه إلىٰ مستوىٰ أعلىٰ هو مستوىٰ العقيدة فيعيشون لعقيدة ويمضون في سلوكهم بما تملي به عليهم عقيدتهم، سواء سخط الناس أم رضوا وليس فوق هذا المستوىٰ حين يندفع المرء بوحي عقيدته وإيمانه غير مبال برضا راض أو سخط ساخط، ليس فوق هذا المستوىٰ مستوىٰ أرفع منه.

ذكرنا بأن غرائز المرء لابد من تعديلها ولا يستطيع أفراد المجتمع أن يعيشوا عيشة راضية إذا كان الذي يحكم الأفراد هو غرائزهم، وتعديل الغرائز في التربية التقليدية يتم علىٰ الغالب عن طريق الثواب والعقاب، وبذلك يدع المرء دافعه الغريزي ويكبته طمعًا في ثواب أو خوفًا من عقاب أو رغبة في ثناء أو رهبة من هجاء، ولكن الغريزة في كل هذه الأحوال شديدة قوية فعالة مالكة، إلا أنه قد حيل بينها وبين ما تشتهي لوجود العقاب أو تعيير المجتمع وسخطه وعقابه، وقد يقع المرء في مثل هذه الحال فريسة لصراع الغريزة وغريزة الخوف من المجتمع، وقد ينوء هذا الإنسان الموزع بحمل العبء فتخور قواه وتنهار أعصابه.

إن خير وسيلة لتربية الغرائز وتعديلها تربية العقيدة تربية قوية. هنالك تظل الغريزة ولكنها تصبح مملوكة غير مالكة تابعة غير متبوعة خادمة غير مخدومة، هنالك في ظل العقيدة المثلىٰ يلين قياد الغرائز

جميعا وتصبح كلها جنوداً طيعة للقيادة العليا، فغريزة جمع المال لا تفقد قوتها ولا حدتها، ولكن وجهتها بعد هيمنة العقيدة ليست إلىٰ الترف والتفاخر والتكاثر بل إلىٰ خدمة العقيدة؛ فالمال يجمع لينفق دفعة واحدة في سبيل العقيدة. وكذلك الأبناء يحبون ما داموا عوناً علىٰ خدمة العقيدة ونصرتها، وكذلك الإخوان وكذلك الأهل والعشيرة»[١].

من خلال ما سبق بيانه عن رجل العقيدة ندرك أن أبرز صفاته أنه يعيش لعقيدته ويمضي في سلوكه بما تملي عليه هذه العقيدة غير مبالٍ بسخط الناس ولا رضاهم ولا بعاداتهم وتقاليدهم المحرمة. يغير واقع الناس ولا يسايره يؤثر فيه ولا يتأثر، هذا ما ينبغي أن يكون عليه رجال العقيدة والدعوة والعلم، ولكن الناظر اليوم في واقع الأمة وما تعرضت له من التبعية والتقليد والمسايرة يجد أن الصفات المذكورة في رجل العقيدة والمشار إليه سابقًا لا تكاد توجد اليوم إلا في فئة قليلة من الداعين إلىٰ الله عز وجل؛ نسأل الله عز وجل أن يبارك في أعمالهم وأوقاتهم.

أما السواد الأعظم فقد تأثر بشكل أو بآخر بفتنة مسايرة الواقع ما بين مقل ومكثر – وما أبرئ نفسي –.

---

(١) في سبيل الدعوة الإسلامية ص ٣٩ – ٤٣ (باختصار).

وفيما يلي بعض صور هذه الفتنة التي يجب أن يحذرها المسلمون بعامة والمصلحون وأهل العلم بخاصة:

١- مسايرة الواقع فيما ألفه الناس من عادات اجتماعية وأسرية:

وذلك أنه قد ظهرت في حياة الناس اليوم ومنذ سنوات عديدة كثير من العادات والممارسات الاجتماعية المخالفة للشريعة والمروءة بفعل الانفتاح علىٰ حياة الغرب الكافر وإجلاب الإعلام الآثم علىٰ تزيينها للناس فوافق قلوبًا خاوية من الإيمان فتمكن فيها وأشربت حبها، وكانت في أول الأمر غريبة ومستنكرة ولكن النفوس ألفتها وسكنت إليها مع مرور الوقت وشدة الترويض وقلة الوازع. ومن أبرز هذه العادات والممارسات:

* ما انتشر في بيوت كثير من المسلمين اليوم من الخدم والخادمات حتىٰ صار أمرًا مألوفًا وصلت فتنته إلىٰ بيوت بعض الدعاة وأهل العلم مع أن بعض هؤلاء الخدم كفرة أو فسقة وأكثر الخادمات هن بلا محارم. وخضع الناس للأمر الواقع وأصبحت ترىٰ من ابتلي بهذا الأمر يتعامل مع الخادمات وكأنهن إماء غير حرائر ولا أجنبيات، يتبرجن أمامه وقد يخلو بهن، وكذلك الحال مع الخادمين والسائقين الأجانب حيث قد ينفردون بالنساء اللاتي يتسامحن بكشف زينتهن أمام هؤلاء الخدم وكأنهم مما ملكت اليمين، وكل هذا ويا للأسف يتم بعلم

ولي الأمـر من زوج أو أب أو أخ وإذا نوصح الولي في ذلك قـال : نحن نساير الواقع وكل الناس واقعون في هذا، ويصعب علينا مقاومة ضغط الأهل والأولاد ومطالبهم وإلحاحهم علىٰ مسايرة أقاربهم وجيرانهم!!

* ما انتشر في بيوت كثير من المسلمين من أدوات اللهو وأجهزة الفساد كالتلفاز وغيره، وكذلك ما امتلأت به البيوت من صور ذوات الأرواح من غير ضرورة حتىٰ أصبحت هذه المقتنيات أمرًا مألوفًا لا يفكر في التخلي عنه، ومن ينكره من أولياء الأمور يعترف بضعفه أمام رغبات الزوجة والأولاد وسخط المجتمع من حوله فيستسلم لمثل هذه المنكرات مسايرة للواقع وإرضاء للناس الذين لن يغنوا عنه من الله شيئًا. وكفىٰ بذلك فتنة.

* ما ظهر في السنوات الأخيرة من انتشار قصور الأفراح وما يحصل فيها من منكرات وبخاصة في أوساط النساء كالتبرج الفاضح، والغنا المحرم المصحوب بأصوات النساء المرتفعة ناهيك عن المفاخرة والمباهاة في الملابس والمآكل... إلخ ومع ذلك فلقد أصبحت أمرًا مألوفًا يشنع علىٰ من يخرج عليه أو يرفضه ويقاطعه، حتىٰ أصبح كثير من الناس أسيرًا لهذه العادات مسايرة للناس وإرضاءً لهم أو اتقاءً لسخطهم.

* مسايرة النساء في لباسهن وتقليدهن لعادات الغرب الكافر في اللباس والأزياء وصرعات الموضات وأدوات التجميل حتىٰ أصبح أمراً مألوفًا لم ينج منه إلا أقل القليل ممن رحم الله عز وجل من النساء الصالحات المتربيات في منابت صالحة تجعل رضا الله عز وجل فوق رضا المخلوق، أما أكثر النساء فقد سقط في هذه الفتنة فانهزمت المرأة أمام ضغط الواقع الشديد، وتلا ذلك انهزام وليها أمام رغبة موليته واستسلم هو الآخر وساير في ذلك مع من ساير حتىٰ أصبح كثير من نساء المسلمين علىٰ هيئة في اللباس والموضات ينكرها الشرع والعقل وتنكرها المروءة والغيرة، وكأن الأمر تحول - والعياذ بالله تعالىٰ - إلىٰ شبه عبودية لبيوت الأزياء يصعب الانفكاك عنها.

وعن هذه العادات والتهالك عليها وسقوط كثير من الناس فيها.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ: (... هذه العادات والتقاليد التي تكلف الناس العنت الشديد في حياتهم، ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفراً. هذه الأزياء والمراسم التي تفرض نفسها علىٰ الناس فرضًا، وتكلفهم أحيانًا مالا يطيقون من النفقة، وتأكل حياتهم واهتماماتهم، ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم. ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها.. أزياء الصباح وأزياء بعد الظهر، وأزياء المساء.. الأزياء القصيرة، والأزياء الضيقة، والأزياء المضحكة! وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف... إلىٰ آخر هذا الاسترقاق المذلّ.. من الذي يصنعه ومن

الذي يقف وراءه؟ تقف وراءه بيوت الأزياء. وتقف وراءه شركات الإنتاج! ويقف وراءه المرابون في بيوت المال والبنوك، من الذين يعطون أموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدها! ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها!.. ولكنهم لا يقفون بالسلاح الظاهر والجند المكشوف، إنما يقفون بالتصورات والقيم التي ينشئونها، ويؤصلونها بنظريات وثقافات؛ ويطلقونها تضغط على الناس في صورة (عرف اجتماعي).

فهم يعلمون أن النظريات وحدها لا تكفي مالم تتمثل في أنظمة حكم، وأوضاع مجتمع، وفي عرف اجتماعي غامض لا يناقشه الناس، لأنه ملتبس عليهم متشابكة جذوره وفروعه!)[1].

* مسايرة الناس فيما اعتادوه اليوم من التوسع في المساكن والمراكب والمآكل بشكل يتسم بالترف الزائد والإسراف بل بالمباهاة والمفاخرة حتى ضعف كثير من الناس عن مقاومة هذا الواقع فراح الكثير منهم يرهق جسده وماله، ويحمل نفسه الديون الكبيرة وذلك ليساير الناس ويكون مثل فلان وفلان. والمشكل هنا ليس هو التوسع في المباحات وترفيه النفس فقد لا يكون بذلك بأسًا إذا لم يوقع في الحرام. لكن ضغط الواقع وإرضاء الناس ومسايرة عقول النساء والأطفال

(١) في ظلال القرآن: ٢/١٢١٩.

يدفع بعض الطيبين إلىٰ تحميل نفسه من الديون الباهظة، وذلك ليكون مثل غيره في المركب أو المسكن. ولن ينفعه مسايرة الناس من الأقارب والأباعد شيئًا إذا حضره الموت وديون الناس علىٰ كاهله لم يستطع لها دفعًا.

٢- مسايرة الناس فيما يطرحونه من استفتاءات حول بعض المخالفات الشرعية المعاصرة:

وذلك من قبل بعض أهل العلم الذين قد يرون مسايرة الواقع في فتاويهم فيفتون ببعض الأقوال الشاذة والمهجورة أو يحتجون بقواعد الضرورة أو رفع الحرج أو الأخذ بالرخص.. إلخ ولا يخفىٰ ما في ذلك من السير مع أهواء الناس والرضىٰ بالأمر الواقع، والتحلل من أحكام الشريعة شيئًا فشيئًا، والمطلوب من أهل العلم والفتوىٰ في أزمنة الغربة أن يعظوا الناس ويرشدوهم ويأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر بدل أن يُحَسِّنوا لهم الواقع ويبرروا صنيعهم فيه.

يقول الشاطبي رحمه الله تعالى: (والمقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه حتىٰ يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد الله اضطراراً)(١).

ويقول أيضًا: (.. إن الترخص إذا أخذ به في موارده علىٰ الإطلاق كان ذريعة إلىٰ انحلال عزائم المكلفين في التعبد علىٰ الإطلاق، فإذا

(١) الموافقات، للشاطبي: ٢/١٢٨.

أخذ بالعزيمة كان حريًّا بالثبات في التعبد والأخذ بالحزم فيه... فإذا اعتاد الترخص صارت كل عزيمة في يده كالشاقة الحرجة، وإذا صارت كذلك لم يقم بها حق قيامها وطلب الطريق إلىٰ الخروج منها)[١].

وقد لا يكون المفتي قاصداً مسايرة واقع الناس أوالميل مع أهوائهم، لكنه يغفل عن مكر بعض الناس وخداعهم وذلك في طريقة استفتائهم وصياغتها صياغة تدفع المفتي من أهل العلم إلىٰ إجابته بما يهوىٰ.

وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (يحرم عليه - أي علىٰ المفتي - إذا جاءته مسألة فيها تحايل علىٰ إسقاط واجب أو تحليل محرم أو مكر أو خداع أن يعين المستفتي فيها، ويرشده إلىٰ مطلوبه أو يفتيه بالظاهر الذي يتوصل به إلىٰ مقصوده، بل ينبغي له أن يكون بصيراً بمكر الناس وخداعهم وأحوالهم، ولا ينبغي له أن يحسن الظن بهم، بل يكون حذراً فطناً فقيهاً بأحوال الناس وأمورهم، يوازره فقهه في الشرع، وإن لم يكن كذلك زاغ وأزاغ. وكم من مسألة ظاهرها ظاهر جميل، وباطنها مكر وخداع وظلم، فالغر ينظر إلىٰ ظاهرها ويقضي بجوازه، وذو البصيرة ينقد مقصدها وباطنها، فالأول يروج عليه زغل المسائل كما يروج علىٰ الجاهل بالنقد زغل الدراهم، والثاني يخرج زيفها كما يخرج الناقد زيف النقود، وكم من باطل يخرجه الرجل بحسن لفظه وتنميقه وإبرازه في صورة حق، وكم من

(١) المصدرالسابق ٢ / ٢٤٧ .

حق يخرجه بتهجينه وسوء تعبيره في صورة باطل، ومن له أدنىٰ فطنة وخبرة لا يخفىٰ عليه ذلك)[١].

٣- مسايرة بعض شباب الدعوة لما تقوم به بعض الجماعات الإسلامية من اجتهادات في الدعوة ووسائلها، والتي قد يكون في بعضها شيء من المخالفات الشرعية أو البدع المحدثة باسم مصلحة الدعوة.

٤- مسايرة واقع الأنظمة ببعض التنازلات التي تضر بالدعوة وأهلها:

وهذا من أخطر ما يتعرض له أهل الدعوة والعلم والإصلاح وبخاصة حينما يكثر الفساد وتشتد وطأته علىٰ الناس ويستبطأ نصر الله عز وجل ويتسلط الظالمون علىٰ عباد الله المصلحين، حينئذ يجتهد بعض المهتمين بالدعوة والإصلاح ويظهر لهم أن التقارب مع أرباب الأنظمة والسلطان والالتقاء معهم في منتصف الطريق قد يكون فيه مصلحة للدعوة وتخفيف شر عن المسلمين، وكل ما في الأمر بعض التنازلات القليلة التي يتمخض عنها مصالح كبيرة زعموا!! وليس المقام هنا مقام الرد والمناقشات لهذه الاجتهادات فيكفي في فشلها وخطورتها نتائجها التي نسمعها ونراها عند من خاضوا هذه التنازلات ورضو بالأمر الواقع. فلا مصلحة ظاهرة حققوها بتنازلاتهم ولا مفسدة قائمة أزالوها.

---

(١) إعلام الموقعين: ٤/ ٢٢٩.

ولقد حذر الله عز وجل نبيه ﷺ عن الركون للظالمين المفسدين أشد التحذير، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٣ – ٧٥].

يقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية:

(يعدد السياق محاولات المشركين مع الرسول ﷺ وأولها محاولة فتنته عما أوحىٰ الله إليه، ليفتري عليه غيره، وهو الصادق الأمين.

لقد حاولوا هذه المحاولة في صور شتى.. منها مساومتهم له أن يعبدوا إلهه في مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم. ومنها مساومة بعضهم له أن يجعل أرضهم حرامًا كالبيت العتيق الذي حرمه الله. ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلسًا غير مجلس الفقراء...

والنص يشير إلىٰ هذه المحاولات ولا يفصلها، ليذكر فضل الله علىٰ الرسول في تثبيته علىٰ الحق، وعصمته من الفتنة، ولو تخلىٰ عنه تثبيت الله وعصمته لركن إليهم فاتخذوه خليلاً. وللقىٰ عاقبة الركون إلىٰ فتنة المشركين وهي مضاعفة العذاب في الحياة والممات، دون أن يجد له نصيرًا منهم يعصمه من الله.

هذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله، هي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائمًا. محاولة إغرائهم لينحرفوا – ولو قليلاً – عن استقامة الدعوة وصلابتها. ويرضوا بالحلول الوسط التي يغرونهم بها في مقابل مغانم كثيرة. ومن حملة الدعوات من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرىٰ الأمر هينًا، فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلية، إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق. وقد يدخل الشيطان علىٰ حامل الدعوة من هذه الثغرة، فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليه ولو بالتنازل عن جانب منها!

لكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلىٰ الانحراف الكامل في نهاية الطريق. وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها ولو يسير، وفي إغفال طرف منها ولو ضئيل، لا يملك أن يقف عند ما سلم به أول مرة. لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلىٰ الوراء!

والمسألة مسألة إيمان بالدعوة كلها. فالذي ينزل عن جزء منها مهما صغر، والذي يسكت عن طرف منها مهما ضؤل، لا يمكن أن يكون مؤمنًا بدعوته حق الإيمان. فكل جانب من جوانب الدعوة في نظر المؤمن هو حق كالآخر. وليس فيها فاضل ومفضول. وليس فيها ضروري ونافلة وليس فيها ما يمكن الاستغناء عنه، وهي كلٌّ متكامل

يفقد خصائصه كلها حين يفقد أحد أجزائه. كالمركب يفقد خواصه كلها إلا فقد أحد عناصره!

وأصحاب السلطان يستدرجون أصحاب الدعوات. فإذا سلموا في الجزء فقدوا هيبتهم وحصانتهم، وعرف المتسلطون أن استمرار المساومة، وارتفاع السعر ينتهيان إلىٰ تسليم الصفقة كلها!

والتسليم في جانب ولو ضئيل من جوانب الدعوة لكسب أصحاب السلطان إلىٰ صفها؛ هو هزيمة روحية بالاعتماد علىٰ أصحاب السلطان في نصرة الدعوة. والله وحده هو الذي يعتمد عليه المؤمنون بدعوتهم. ومتىٰ دبت الهزيمة في أعماق السريرة، فلن تنقلب الهزيمة نصرًا)[١].

٥- مسايرة ركب الغرب في بعض ميادينه من قبل دعاة العصرانية من أبناء المسلمين.

إن الحديث عن العصرانية والعصرانيين يطول ويطول[٢] ولكن يكفي أن نذكر هنا ما يتعلق بموضوعنا وهو الحديث عن فتنة المسايرة

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٢٤٥.

(٢) من أراد التوسع في هذا الموضوع وكيف نشأ ومن هم رموزه، فليرجع إلى كتاب (العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب)، للأستاذ محمد حامد الناصر.

ولا أحسب العصرانيين من بني قومنا إلا وقد ركسوا في هذه الفتنة وظهرت عليهم في أجلىٰ صورها. وهم لا يعترفون بأنها مسايرة ولكنهم يسمونها تجديداً وتطويراً يناسب العصر، وتحت هذا المسمىٰ يقضون علىٰ كثير من الثوابت الشرعية ويتحللون من شرع الله عز وجل باسم التطوير وهو في الحقيقة مسايرة للواقع الغربي وتقليداً أعمىٰ وانبهاراً بإنجازاته المادية والهزيمة النفسية أمامه. والغريب في أمر هؤلاء القوم أنهم يرفضون التقليد ويشنعون علىٰ من يقلد سلف الأمة ويتبعهم وعلىٰ من يبقىٰ علىٰ الموروث لا يتجاوزه ولا يطوره ثم هم في نفس الوقت يسقطون في تقليد الغرب ومحاكاته وبصورة لا تدع مجالاً للريب والشك وهم الذين يتشدقون بالعقلانية ورفض التقليد!!

ويعرِّف الدكتور الزنيدي العصرانية بقوله: (هي التأقلم مع المعطيات الاجتماعية والعلمية المتجددة في كل عصر وربط الإنسان في فرديته وجماعيته بها في دائرة التصور البشري)[1].

ويتحدث الأستاذ الناصر عن بعض شذوذات العصرانيين في ميادين الفقه فيقول: (لقد خرج العصرانيون علينا بفقه غريب شاذ، يريد تبرير الواقع المعاصر، لإدخال كثير من القيم الغربية في دائرة الإسلام. ذلك أن موقفهم من النصوص الشرعية عجيب فإذا كانت الآية واضحة الدلالة والأحاديث النبوية المتواترة قالوا: إن هذه النصوص

---

(١) العصرانية في حياتنا الاجتماعية ص ٢٢.

كانت لمناسبات تاريخية لا تصلح لعصرنا الحاضر، وإذا كانت أحاديث آحاد قالوا: لا يؤخذ من خبر الآحاد تشريع ولا نبني عليه عقيدة، وألغوا بعض الأحاديث الصحيحة بحجة أنها سنة غير تشريعية ثم يتهمون الفقهاء بالجمود وضيق الأفق!!

إن هذه التجاوزات - لو أخذ بها - فلن تترك من ثوابت الإسلام شيئًا إلا وحاولت مسخه أو تشويهه... ومن شذوذاتهم:

١- رفضهم تطبيق الحدود التي فيها رجم أو قتل أو قطع عضو إلا بعد الإصرار والمعاودة والتكرار، ويأتون بشبه من هنا وهناك.

٢- إباحتهم الربا في البنوك بحجة الحفاظ علىٰ اقتصاد البلاد، وأن الربا المحرم عندهم هو الربح المركب.

٣- موقفهم من المرأة والدعوة إلىٰ تحريرها (زعموا)، ودعوتهم لها إلىٰ محاكاة المرأة الغربية في عاداتها وإلىٰ الثورة علىٰ الحجاب الشرعي وتعدد الزوجات.

يقول محمد عمارة: (إن تعدد الزوجات وتتابع الزواج واتخاذ السراري والجواري من سمات عصر الإقطاع والدولة الإقطاعية).

... والترابي يقصر الحجاب علىٰ نساء النبي ﷺ.

... ثم راحوا يبررون الاختلاط بين الرجال والنساء بعد أن زينوا للمرأة الخروج من بيتها.

٤- أحكام أهل الذمة:

كما يرىٰ العصرانيون أن أحكام أهل الذمة كانت لعصر غير عصرنا وهي الآن لا تناسب عصرنا)[١].

كما يتحدث عن مفهومهم للتجديد والتطوير فيقول: (... إن مزاعم التجديد التي رفع هؤلاء لواءها كشفت الحقيقة جلية وهي أن التجديد لديهم يعني تطوير الدين علىٰ طريقة عصرنة الدين عند اليهود والنصارى.

ولذلك فإن التجديد عندهم يعني: هدم العلوم المعيارية: أي علوم التفسير المأثور وأصوله، وعلم أصول الفقه، وعلم مصطلح الحديث.

- ويعني رفض الأحاديث الصحيحة جزئيًا أو كليًا بحجة ضرورة ملاءمتها لعقولهم ولمصلحة الأمة، وظروف العصر الحاضر.

- ويعني رفض السنة غير التشريعية أي فيما يخص شئون الحكم والسياسة وأمور الحياة والمجتمع عمومًا.

- التجديد عندهم يعني الانعتاق من أسار الشريعة إلىٰ بحبوحة القوانين الوضعية، والتي تحقق الحرية والتقدم، ولذلك هاجموا الفقه والفقهاء بلا هوادة...

---

(١) العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب (بتصرف واختصار).

– الاجتهاد والتجديد عندهم يعني تحقيق المصلحة وروح العصر...)[1].

مما سبق يتبين خطر هذه البدعة الجديدة وأن أصلها مسايرة الواقع والانهزامية أمام ضغطه مصحوبًا ذلك بالجهل بالإسلام أحيانًا وبالهوىٰ والشهوة أحيانًا كثيرة.

ولقد تأثر بهذه البدعة والدعوة إليها فئام كثيرة من الناس وهم وإن كانوا لا يعلمون أصولها ورموزها لكنهم روضوا عليها بفعل وسائل الإعلام المختلفة المرئية منها والمسموعة والمقروءة والتي ما بقي بيت مدر ولا وبر إلا دخلته إلا من رحم الله عز وجل، وإلا لو كانت الدعوة إلىٰ العصرانية متوقفة علىٰ ما يكتبه رموزها في مؤلفاتهم أو مقالاتهم الصحفية لما كان لها هذه التأثير العام في الأمة ولما تأثر بها إلا فئة من المثقفين، ولكن الدعوة إلىٰ العصرانية في حقيقة الأمر هي التي تهيمن علىٰ وسائل الإعلام المؤثرة في بلاد المسلمين بعامة وهي إن كانت لا تطرحها طرحًا مباشرًا ولكنها تطرحها في صورة مناظرة ومحاورة أو في صورة مسرحية أو فيلم أو في صورة أغنية وأنشودة أو في صورة منتديات ثقافية ومهرجانات شعبية ... إلخ.

بل إن الأمر – ويا للأسف – لم يتوقف علىٰ العامة من المسلمين، بل

---

(١) المصدر السابق: ص ٣٥٣، ٣٥٤.

قرأنا من أهل العلم والفتوىٰ وبعض الدعاة في بعض ديار المسلمين من تأثر بهـذه الدعوة الآثمة فراح يصدر من الفتاوىٰ التي تخدم هذه النحلة من قريب أو بعيد وصرنا نسمع ممن يفتي بجواز الغنا والموسيقىٰ والدعوة إلىٰ عمل المرأة ولو اختلطت بالرجال والتساهل في حجابها، ودخولها في الانتخابات ومجالس الشورى، وظهورها علىٰ خشبة المسرح للتمثيل والرقص، وإباحة التصوير بجميع أنواعه .. إلخ، ولقد سبق الكلام عن هذه الفئة من أهل العلم والفتوىٰ في فقرة سابقة والحمد لله رب العالمين.

الآثار الخطيرة لمسايرة الواقع وسبل النجاة منها:

إن مسايرة الواقع وما ألفه الناس من المخالفات الشرعية له من الآثار الخطيرة علىٰ المساير في دينه ودنياه ما لو انتبه لها الواحد منا لما رضي بحاله التي أعطىٰ فيها زمامه لغيره وأصبح كحال البعير المقطور رأسه بذنب غيره، ومن أخطر هذه الآثار ما يلي:

١- الآثار الدنيوية: وذلك بما يظهر علىٰ المساير من فقدان الهوية وذوبان الشخصية الإسلامية وبما يتكبده من معاناة في جسده ونفسه وماله وولده. وهذه كلها مصادر عنت وشقاء وتعاسة بخلاف المستسلم لشرع الله عز وجل الرافض لما سواه المنجذب إلىٰ الآخرة، فلا نجده إلا سعيداً قانعاً مطمئناً ينظر ماذا يرضي ربه فيفعله وماذا يسخطه

فيجتنبه غير مبالٍ برضىٰ الناس أو سخطهم.

٢- الآثار الدينيــة: وهذه أخطر من سابقتها، وذلك أن المساير لواقع الناس المخالف لشرع الله عز وجل قد يتحول بمضي الوقت واستمراء المعصية إلىٰ أن يألفها ويرضىٰ بها ويختفي من القلب إنكارها وما وراء ذلك من الإيمان حبة خردل، كما أن المساير لركب المخالفين لأمر الله عز وجل لا تقف به الحال عند حد معين من المسايرة والتنازل والتسليم للواقع، بل إنه ينزل في مسايرته خطوة خطوة وكل معصية يساير فيها الناس تقوده إلىٰ معصية أخرىٰ وهكذا حتىٰ يظلم القلب ويصيبه الران أعاذنا الله من ذلك، ذلك أن من عقوبة المعصية معصية بعدها ومن ثواب الحسنة حسنة بعدها، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (وقد ذكر في غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى. وكذلك السيئة الثانية: قد تكون من عقوبة الأولى. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد: ٤ - ٦]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾

[المائدة: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤][١].

وما أحسن ما قاله سيد قطب رحمه الله تعالىٰ في النقل السابق حيث قال: «ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلىٰ الانحراف الكامل في نهاية الطريق وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء يسير منها ... لا يملك أن يقف عند ما سلم به أول مرة، لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلىٰ الوراء»[٢].

الآثار الدعوية: إن الداعية الذي تظهر عليه مظاهر مسايرة الواقع يفقد مصداقيته عند نفسه وعند الناس وإن لم يتدارك نفسه فقد ييأس وينحسر ويترك الدعوة وأهلها، إذ كيف يساير الواقع من هو مطالب بتغيير الواقع وتسييره؟! وكلما كثر المسايرون كثر اليائسون والمتساقطون، وهذا بدوره يؤدي إلىٰ ضعف الدعوة وضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٤/ ٢٤٠.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٢٤٥.

سبل النجاة أو الوقاية من هذه الفتنة:

إنه لا ينجي من الفتن صغيرها وكبيرها ما ظهر منها وما بطن إلا الله عز وجل قد قال لنبيه ومصطفاه ﷺ: ﴿ **وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا** ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٤] فأول سبيل من سبل النجاة هو سؤال الله عز وجل التثبيت والدعاء المستمر بذلك بشرط أن يصاحب ذلك صدق التوجه إلىٰ الله عز وجل وصدق العزيمة والأخذ بأسباب الثبات ومنها:

(١) فعل الطاعات وامتثال الأوامر واجتناب النواهي كما قال عز وجل: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا** ﴿٦٦﴾ ﴾ [النساء: ٦٦]. فذكر سبحانه في هذه الآية أن شدة التثبيت تكون لمن قام بفعل ما يوعظ به من فعل الأوامر وترك النواهي، ويشير الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ إلىٰ أثر الطاعة في الثبات فيقول: «فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت ومخذول بترك التثبيت، ومادة التثبيت وأصله ومنشأه من القول الثابت وفعل ما أمر به العبد فبهما يثبت الله عبده. فكل ما كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتاً.

قال تعالىٰ: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا** ﴾، فأثبت الناس قلبًا أثبتهم قولاً والقول الثابت هو القول الحق

والصدق»[١].

(٢) مصاحبة الدعاة الصادقين الرافضين للواقع السيء والسعي معهم في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ وتغيير الواقع السيء في نفوسهم وأسرهم ومجتمعاتهم، واعتزال أهل الدنيا الراكنين إليها والمسارعين فيها والتابعين لكل ناعق، وترك مخالطتهم إلا لدعوتهم أو ما تدعو الحاجة إليه، لأن المجالسة تؤول إلىٰ المؤانسة والمجانسة.

(٣) التفقه في الدين والبصيرة في شرع الله عز وجل، لأن المسايرة عند بعض الناس تنبع من جهل بالشريعة وأحكامها ومقاصدها مع أن أكثر المسايرين المخالفين للشريعة إنما يدفعهم إلىٰ المسايرة الهوىٰ والضعف.

والمقصود أن من كان مسايرته بسبب جهله بالشرع فإن في العلم الشرعي دواؤه ومنعه من المسايرة بإذن الله تعالى، وينبغي علىٰ طالب العلم الشرعي والمستفتي في دينه أن يسأل أهل العلم الراسخين الذين يجمعون بين العلم والورع ومعرفة الواقع، وأن يحذر من أهل العلم الذين يسيرون مع أهواء الناس وتلمس الرخص والآراء الشاذة لهم.

(٤) إفشاء المناصحة وإشاعتها بين المسلمين وبخاصة بين أهل الخير، لأن السكوت علىٰ المخالفات وضعف التناصح بين المسلمين من

---

(١) بدائع التفسير ١ /١٧.

أسباب التلبس بالمنكرات ومسايرة الناس فيها .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

المنارة الحادية والعشرون

المداراة - لا - المداهنة

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد

فإن من أقوىٰ الأسباب والوسائل التي تساعد علىٰ تأصيل المفاهيم وإيضاحها هو التحديد والتحرير للمصطلحات التي تستخدم وتطلق علىٰ مفهوم معين أو موقف محدد، كما أن تحديد الألفاظ والمواضع يساعد أيضًا علىٰ الفصل في الأمور وعدم اختلاط بعضها ببعض.

وإن من المصطلحات التي تحتاج إلىٰ إيضاح وتحديد وتحرير هو هذا الموضوع الذي نحن بصدده ألا وهو تحديد مفهوم المداراة، والمداهنة والفرق بينهما وما ينشأ عن كل منهما من مواقف.

ولقد اخترت هذا الموضوع وذلك لخطورة الخلط بين هذين الأمرين وما ينشأ عن ذلك من مواقف عملية خاطئة خاصة في هذا العصر الذي من سماته التناقض والاضطراب وفي مثل هذه الأجواء يتعرض المسلم لكثير من المواقف التي تفرض عليه المداراة وقد يقع في المداهنة

يحسب أنها مداراة .

وقد يحصل العكس في هذه القضية حيث يوجد من يرفض أي أسلوب للمداراة والتي قد تكون واجبة في بعض المواقف - ظانًّا أنها مداهنة، ومعلوم ما ينشأ من هذا الخلط من مفاسد أو تفويت مصالح .

من أجل ذلك كله وقع الاختيار علىٰ هذا الموضوع .

أسأل الله عز وجل أن ينفعنا بما فيه وأن يفقهنا في ديننا، وأن يؤتنا الحكمة بفضله ورحمته ﴿**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا...**﴾... الآية .

تعريف المداراة :

بوَّب البخاري رحمه الله تعالىٰ في المداراة بابًا كاملاً في كتاب الأدب وأسماه (باب المداراة مع الناس) .

وذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالىٰ « أن أصلها الهمز لأنه من المدافعة والمراد به الدفع برفق »[١] .

وذكر صاحب القاموس المحيط في معنىٰ دراه : أي جعله دِرءًا،

---

(١) فتح الباري : ١٠ / ٥٤٥ .

ودرأه أي دفعه وتدارأوا أي تدافعوا في الخصومة.

أما المداهنة:

فقد ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالىٰ أن المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر علىٰ الشيء ويستر باطنه)[١].

وذكر صاحب القاموس المحيط: أنها إظهار خلاف ما يضمر.

وبهذا التعريف يتبين خطر المداهنة وما تؤدي إلىٰ ضياع الدين كله أو بعضه، وأن في المداراة مندوحة عن المداهنة.

وأزيد هذا الأمر إيضاحًا ببعض الآيات من كتاب الله عز وجل وبعض الأحاديث التي حذرت من المداهنة وأذنت في المداراة مع ذكر أقوال المفسرين والمحدثين حولها.

الأدلة الناهية عن المداهنة

يقول الله عز وجل: ﴿**فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾**﴾ [القلم: ٨، ٩]. ولعلماء التفسير أقوال مختلفة في معنىٰ المداهنة، يجمعها معنى واحد كما سيتضح ذلك من عرض أقوالهم وأن الاختلاف هنا اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد.

نقل القرطبي رحمه الله في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما وعطية والضحاك والسدي في قوله تعالىٰ: ﴿**وَدُّوا لَوْ**

---

(١) فتح الباري: ١٠/٥٤٥.

تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾، ودوا لو تكفر فيتمادون علىٰ كفرهم.

وعن ابن عباس أيضًا: ودوا لو ترخص لهم فيرخصون لك.

وقال الفراء والكلبي: لو تلين لهم فيلينون لك.

والإدهان: التلين لمن لا ينبغي له التليين، قاله الفراء.

وقال مجاهد: المعنىٰ ودوا لو ركنت إليهم وتركت الحق فيمالئونك ... إلىٰ أن قال. وقال الحسن: «ودوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم... إلخ.

ثم قال القرطبي قلت: كلها إن شاء الله صحيحة علىٰ مقتضىٰ اللغة والمعنى، فإن الإدهان: اللين والمصانعة، وقيل مجاملة العدو مما يلته»[1] أهـ.

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالىٰ حول هذه الآية فيقول: «... فهو المساومة إذن والاعتقاد في منتصف الطريق كما يفعلون في التجارة، وفرق بين الاعتقاد والتجارة كبير. فصاحب العقيدة لا يتخلىٰ عن شيء منها لأن الصغير منها كالكبير. بل ليس في العقيدة صغير وكبير إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء لا يطيع فيها صاحبها أحدًا ولا يتخلىٰ عن شيء أبدًا، وما كان يمكن أن يلتقي

---

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٣٠.

الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق، ولا أن يلتقيا في أي طريق»[١].

يقول الله عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان: ٢٤]، ويقول الله عز وجل: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥].

من الآيات السابقة يتبين أن المداهنة محرمة بجميع صورها، لأن محصلة أعمال المداهنة هو النقص في الدين والنيل منه.

والحاصل أن أي عمل تتعارض فيه المصالح والمفاسد فإن ما كان محصلته ثلم الدين أو أهله فإنه محرم ولا يجوز الإقدام عليه، بل تجب فيه المداراة.

وما كان محصلته الإبقاء على الدين والمحافظة عليه فإنه جائز فعله، بل واجب في بعض الأحيان، كما توضح ذلك الأدلة التالية:

(١) يقول الله عز وجل: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ...﴾ [الأنعام: ١٠٨].

ففي هذه الآية الكريمة نهي للمؤمنين من أن يسبوا المشركين

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/٣٦٥٨.

وآلهتـهـم ومعلوم جواز سب آلهـة المشركين استقلالاً، ولكـن لما كان يتـرتب علىٰ ذلك سب الله عـز وجل وتعالىٰ علوًّا كـبيـرًا، لذلك نهي المؤمنون عن هذا العمل وذلك من باب المداراة والتي محصلتها المحافظة علىٰ الدين ولو في المآل.

والأدلة علىٰ جواز المداراة أو استحبابها أو وجوبها أحيانًا ما يلي:

(٢) يقـول الله عـز وجل في وصف المؤمنين من أهل الكتـاب ويمدحهم بذلك قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [القصص: ٥٤].

ذكر القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ أي (يدفعون. درأت إذا دفعت والدرء الدفع. وفي الحديث (**ادرءوا الحدود بالشبهات**)[١]. قيل: يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن الأذى. وقيل: يدفعون بالتوبة والاستغفار[١] الذنوب.

وعلىٰ الأول فـهو وصف لمكارم الأخـلاق أي مـن قال لهـم سـوءًا لا ينوه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه وهي في صدر الإسلام وهي مما نسختها آية السيف، وبقي حكمها فيما دون الكفر تتعاطاه أمة محمد ﷺ إلىٰ يوم القيامة

---

(١) ذكره الترمذي بلفظ: (ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم) (١٤٢٤).

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ رضي الله عنه: (**وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن**)[1]، ومن الخلق الحسن دفع المكروه والأذىٰ والصبر علىٰ الجفا بالإعراض عنه ولين الحديث)[2] أ هـ.

والدليل من السنة: ما بوَّب له البخاري بقوله « باب المداراة مع الناس » حيث قال:

(١) ويذكر عن أبي الدرداء رضي الله عنه: « إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم ».

(٢) وعن عائشة رضي الله عنها أنه استأذن علىٰ النبي ﷺ رجل فقال: (**إئذنوا له فبئس ابن العشيرة - أو بئس أخو العشيرة -**) فلما دخل ألان له الكلام فقلت له: يا رسول الله قلت ما قلت ثم ألنت له في القول؛ فقال: أي عائشة: (**إن شر الناس منزلة عند الله من تركه - أو ودَعه - الناس اتقاء فحشه**)[3].

وعلق الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالىٰ علىٰ هذين الحديثين بقوله (مختصراً).

---

(١) الترمذي (١٩٨٧)، وقال: حديث حسن.

(٢) تفسير القرطبي: ١٣/٢٩٨.

(٣) فتح الباري: ١٠/٥٤٤ (دار الريان).

(قـال ابن بطال : المداراة من أخـلاق المؤمنين وهي خـفض الجناح للناس ولين الكلمـة وترك الإغـلاظ لهم في القـول وذلك من أقـوىٰ أسباب الألفة .

وظن بعـضـهم أن المداراة هي المداهنة فـغلط، لأن المداراة مندوب إليها والمداهنة محرمة، والفرق أن المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر علىٰ الشيء ويستر باطنه .

وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه .

والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعلم وبالفاسق في النهي عن فعله وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل ولا سيما إذا احتيج إلىٰ تألفه ونحو ذلك)[1] .

وعلق علىٰ حديث عـائشة رضي الله عنها في باب « لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا » .

(وقال القرطبي : في الحديث جواز غيبة المعلن بالفسق أو الفحش ونحو ذلك من الجور في الحكم والدعاء إلىٰ البدعة مع جواز مداراتهم اتقاء شرهم مالم يؤد ذلك إلىٰ المداهنة في دين الله تعالى .

---

(١) فتح الباري : ١٠ / ٥٤٥ (دار الريان) .

ثم قال تبعًا لعياض: والفرق بين المداراة والمداهنة أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معًا وهي مباحة وربما استحبت؛ والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا، والمداهنة: ترك الدين لصلاح الدنيا. أهـ[١].

ومزيداً للفائدة حول هذا الموضوع ننقل مقتطفات مما ذكره الإمام أبو حاتم البستي في كتابه روضة العقلاء ونزهة الفضلاء في «ذكر استعمال لزوم المداراة وترك المداهنة مع الناس» حيث قال: أنبأنا محمد ابن قتيبة اللخمي بعسقلان وعمر بن سعيد بن سنان الطائي بمنبج - قالا: حدثنا ابن واضح حدثنا يوسف بن أسباط حدثنا سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (**مداراة الناس صدقة**).

قال أبو حاتم: الواجب علىٰ العاقل أن يلزم المداراة مع من دفع إليه في العشرة من غير مفارقة.

إذ المداراة من المداري صدقة له، والمداهنة من المداهن تكون خطيئة عليه.

وقال: الواجب علىٰ العاقل أن يداري الناس مداراة الرجل السابح في الماء الجاري ومن ذهب إلىٰ عشرة الناس من حيث هو كدر علىٰ

(١) فتح الباري: ١٠/٤٦٩ (باختصار) (دار الريان).

نفسه عيشه ولم تصف له مودته، لأن وداد الناس لا يستجلب إلا بمساعدتهم علىٰ ما هم عليه إلا أن يكون مأثمًا فإذا كانت حالة معصية فلا سمع ولا طاعة.

وروىٰ بسنده عن المدائني قال. قال معاوية رضي الله عنه: «لو أن بيني وبين الناس شعرة ما تقطعت»؛ قيل: وكيف؟ قال: «لأنهم إن مدوها خليتها وإن خلَّو مددتها».

وكذلك روىٰ بإسناده أن أبا الدرداء رضي الله عنه قال لأم الدرداء: «إذا غضبت فرضيني وإذا غضبت رضيتك، فإذا لم نكن هكذا ما أسرع ما نفترق»[1] أهـ.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ في الفرق بين المداراة والمداهنة وخطورة الخلط بينهما: «وكذلك المداراة صفة مدح، والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما: أن المداري يتلطف بصاحبه حتىٰ يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره علىٰ الباطل ويتركه علىٰ هواه، فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق، وقد ضرب لذلك مَثَلٌ مطابق وهو حال رجل به قرحة قد آلمته فجاءه الطبيب المداوي الرفيق فتعرف عليه، ثم أخذ في تليينها حتىٰ إذا نضجت أخذ في بطها برفق وسهولة، حتىٰ أخرج ما فيها، ثم وضع

---

(١) روضة العقلاء: ص ٧٠ دار الكتب العلمية.

علىٰ مكانها من الدواء والمراهم ما يمنع فساده ويقطع مادته، ثم تابع عليها بالمراهم التي تنبت اللحم، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها، ثم يشد عليها الرباط، ولم يزل يتابع ذلك حتىٰ صلحت.

والمداهن قال لصاحبها: لا بأس عليك منها، وهذه لا شيء فاسترها عن العيوب[١] بخرقة، ثم الهُ عنها، فلا تزال مادتها تقوىٰ وتستحكم حتىٰ عظم فسادها[٢]. أهـ.

من هذا البيان الشافي يتبين لنا حقيقة المداراة والمداهنة، وأنهما ضدان لا يجتمعان؛ إذ أن المداراة صفة مدح، وهي لأهل الإيمان، بينما المداهنة صفة ذم، وهي لأهل النفاق.

الخلاصة:

مما سبق يتبين لنا ذلك الفرق الواضح بين المداهنة والمداراة، وأنه لا يجوز لنا بحال من الأحوال أن نخلط بين هذين المفهومين حتىٰ لا نثلم ديننا بحجة المداراة أو أن نقدم علىٰ أمور يعقبها مفاسد علىٰ هذا الدين خوفًا منا أن إحجامنا عنها يوقعنا في المداهنة، وما أجمل التفريق السابق الذي نقل عن الحافظ ابن حجر في كتاب الفتح وذلك في

---

(١) (العيوب) كذا في الأصل، ولعل الصواب هو: (العيون).

(٢) الروح ص: ٢٣١.

كتاب الأدب في باب (مداراة الناس) حيث أجدني مضطراً لإعادته مع بعض التصرف .

فالمداهنة: أن يتنازل المرء عن شيء من دينه ليحافظ بذلك علىٰ دنياه أو عرضه .

والمــــداراة: أن يتنازل المرء عن شيء من دنياه أو عرضه ليحافظ بذلك علىٰ دينه أو دنياه أو هما معًا .

وأخيـراً: نستطيع القول بأن حقيقة المداراة أو المداهنة مبني علىٰ قاعدة شرعية عظيمة ألا وهي « قاعدة سد الذرائع »، فما كان ذريعة لثلم الدين أو أهله بصفة خاصة أو عامة فهو مداهنة، وما كان ذريعة لحفظ الدين وأهله بصفة خاصة أو عامة فهو مداراة ومن أوضح الأمثلة للمداراة تلك القصة المشهورة عن حذافة السهمي رضي الله عنه حيث دفع القتل عن أسارىٰ المسلمين بتقبيله رأس – النصراني الكافر – ملك الروم .

وختـامًا: أنصح نفسي وإخواني من الدعاة أفراداً وجماعات أن يولوا هذا الموضوع أهمية كبيرة، وأن يصنف المسلم أقواله وأعماله علىٰ ضوء هذه القاعدة الشرعية العظيمة، حتىٰ لا نقع في المداهنة المعلوم حرمتها ظنا منا أنها مداراة أو نجازف في أمور تعود بالمفسدة علىٰ هذا الدين أو أهله ظنًّا منا أن الإحجام عنها مداهنة فنكون

كالمستجير من الرمضاء بالنار.

والأمثلة في هذين الجانبين المتقابلين كثيرة وكثيرة وليس هذا محل ذكرها ولا هو قصدي من هذه المقالة، بل أردت الذكرىٰ والتنبيه علىٰ ضرورة تحديد هذين المفهومين وإزالة ما اشتبك بينهما حتىٰ يتضح كل مفهوم عن الآخر، وأنهما شيئان متقابلان ولفظان متغايران لا مترادفان.

أسأل الله عز وجل أن يبصرنا بديننا وأن يلهمنا رشدنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

المنارة الثانية والعشرون

أسباب النصر وأصول التمكين

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد.

فلم يعد خافيًا علىٰ أحد من الناس اليوم ما يعيشه المسلمون من ذلة ومهانة وما يحيط بهم من ظروف صعبة وأحوال مريرة تتمثل في كيد الأعداء وتسلطهم علىٰ بلاد المسلمين، كما تتمثل في أحوال المسلمين أنفسهم وما طرأ على كثير من مجتمعاتهم من بُعْدٍ عن تعاليم الإسلام وإقصاء لشريعة الله سبحانه ورفض الحكم بها والتحاكم إليها.

إن الواقع المرير الذي يعيشه المسلمون اليوم لا يستغرب من قبل العالمين بسنن الله عز وجل في التغيير، حيث إن هذا الواقع هو النتيجة الطبيعية للبعد عن دين الله عز وجل وعدم الاستسلام لشرعه. ولا ننتظر في ضوء السنن الربانية غير هذا، والله عز وجل يقول ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]، ويقول سبحانه: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ**﴾ [محمد: ٧]؛ أما الذين يجهلون سنن الله عز وجل أو يغفلون عنها وينسونها فهم الذين يستغربون ما يحل بالمسلمين

اليوم من محن وويلات وهم الذين يتساءلون أنىٰ هذا؟ وكيف يحصل هذا ونحن أصحاب الدين الحق؟ فيجيبهم الله عز وجل بما أجاب به من سأل من أصحاب محمد ﷺ مثل هذا السؤال فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ...﴾ [آل عمران: ١٦٥]؛ ونتيجة لنسيان هذه السنة الربانية أو الغفلة عنها يقع الانحراف في المواقف المختلفة إزاء هذه الأحوال المريرة التي يمر بها المسلمون ما بين يائس من التغيير قد أصابه الإحباط وألقىٰ بيده ينتظر المهدي أو المسيح عليه السلام لإنقاذ الأمة والتمكين لها في الأرض، أو مستعجلاً قد نفد صبره مما يرىٰ من الكفر والنفاق فقرر الجهاد والمواجهة مع أعداء الدين غير ملتفت للقواعد الشرعية وأصول التمكين وأسباب النصر، فنجم عن ذلك من المفاسد ما الله به عليم، وآخر رأىٰ مهادنة الأعداء والرضىٰ منهم بأنصاف الحلول والدخول معهم في مفاوضات ومقايضات لم تثمر إلا مزيداً من التمكين للمفسدين والإقرار لهم بالشرعية والوجود.

أما الذين فقهوا سنن الله عز وجل في النصر والتمكين والتغيير وأخلصوا دينهم لله تعالىٰ فقد هداهم ربهم سبحانه لما اختلف فيه من الحق ورأوا أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وذلك بما كان عليه الرسول ﷺ وصحبه الكرام عليهم رضوان الله تعالى.

وباستقراء المنهج النبوي في الإصلاح والتغيير يظهر لنا أنه قائم علىٰ الأصول التالية:

الأصل الأول: البصيرة في الدين وصحة الفهم والعمل.

قال الله عز وجل: ﴿**قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ...**﴾ [يوسف: ١٠٨].

ويعنىٰ بهذا الأصل أن تقوم الدعوة وينطلق التغيير من فهم صحيح وعقيدة صافية وبصيرة واضحة في الدين، كما جاء في كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ وفهم الصحابة رضي الله عنهم، لأن أي دعوة تعارض هذا الفهم أو تزيد عليه أو تنقص فإنها قد فرطت في هذا الأصل العظيم من أصول التمكين والنصر.

ويلحق بالفهم الصحيح ما يجب أن يكون عليه أصحاب الدعوة من عمل صحيح موافق لما كان عليه الرسول ﷺ وذلك في عباداتهم ومعاملاتهم وسلوكهم.

وهذا هو ما أراده الرسول ﷺ عندما وصف الفرقة الناجية المنصورة بقوله: (**ما أنا عليه وأصحابي**)[1].

وإن الجهد في إخضاع أفراد الدعوة وعامة الناس للفهم الصحيح والعمل الموافق يحتاج إلىٰ صبر وعناء وتضافر في الجهود واتخاذ الأسباب المباحة المتاحة في تبليغ هذا الفهم الصحيح للأمة ببرامج علمية وعملية حتىٰ تستقيم الأفهام في العقيدة والأحكام والتصورات

---

(١) رواه الترمذي: كتاب الإيمان باب (١٨) ما جاء في افتراق هذه الأمة ٥/٢٦ (رقم: ٢٦٤١).

علىٰ هذا المنهج النبوي الكريم، ومما يلحق بالفهم فهم الواقع الذي يتحرك فيه الدعاة وطبيعته والبصيرة بأحوال الناس واستبانة سبيل المجرمين والوعي بكيدهم ومخططاتهم وإمكاناتهم.

الأصل الثاني: حسن القصد:

ويعنىٰ بهذا الأصل إخلاص المقاصد لله عز وجل وصدق النية في الدعوة والتغيير بأن يكون القصد من ذلك التعبد لله عز وجل وابتغاء وجهه ورضاه وجنته وإنقاذ الناس بإذن ربهم من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد ومن الشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة.

وهذا بدوره ينفي كل مقصد دنيوي سواء كان رياء أو إرادة جاه أو مال أو منصب أو شهرة.. إلخ لأن وجود مثل هذه المقاصد في الدعوة يفسدها ولا يكون القصد فيها حسنًا وبالتالي لا يبارك الله فيها ولا ينصر أهلها ولا يمكِّن لهم في الأرض ولو كانوا علىٰ فهم صحيح؛ لأنهم فرطوا في أصل عظيم من أصول التمكين ألا وهو إرادة الله عز وجل والآخرة ليس إلا. ولا شك أن تحقيق هذا الأصل العظيم في نفوس الدعاة يحتاج إلىٰ جهد ومجاهدة ومناصحة وتربية علمية وعملية يعتنىٰ فيها بالقلوب وأعمالها وتُقوَّىٰ فيها الصلة بالله عز وجل والتحلي بالأخلاق المحمودة الباطنة والظاهرة والتي علىٰ رأسها الإخلاص لله عز وجل.

الأصل الثالث : وحدة الصف

وهذا الأصل ثمرة للأصل السابق حيث إن تجرد المقاصد لله عز وجل ينفي الهوىٰ وحظوظ النفس، والتي هي من أكبر أسباب الفرقة والبغضاء، لأنه لا يمكن لأصحاب الفهم الصحيح الواحد أن يتفرقوا إلا إذا كان القصد غير حسن. وأصحاب القصد الحسن لا يفارقون غيرهم إلا إذا كانوا علىٰ فهم منحرف غير صحيح كأصحاب الفرق وأهل البدع.

وكون الاجتماع ووحدة الصف أصل من أصول التمكين لا يجادل في هذا أحد كيف والله عز وجل يقول: ﴿ **وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ولا شك أن نبذ الفرقة واجتماع القلوب ووحدة الصف بين أهل السنة أصحاب الفهم الصحيح يحتاج إلىٰ القدوات وإلىٰ الصبر والجهد الجهيد والتجرد لله عز وجل وترك حظوظ النفوس.

وتقع المسئولية في ذلك علىٰ العلماء والموجهين والمربين كل في مجاله، ويكون ذلك بالتواصي والمناصحة وإظهار الود وحقوق الأخوة بين الدعاة، وإن لم يجد بعضنا مجالاً له في جمع الكلمة فليتق الله ولا يفرق، فإنها صدقة منه علىٰ نفسه وكف شر عن إخوانه، وهو بذلك يساهم في جمع الكلمة وتوحيد الصف، وإن مما يحفز الهمم علىٰ

تحقيق هذا الأصل العظيم اليقين بأن نصر الله عز وجل لا ينزل علىٰ أمة متفرقة متباغضة.

وقد يجد أصحاب الدعوة الحريصون علىٰ جمع الكلمة أنفسهم أمام أناس غير حريصين علىٰ وحدة الصف فحينئذ حسبهم أن يعلم الله عز وجل صدقهم وإخلاصهم فيوفقهم ويعينهم وينصرهم.

الأصل الرابع: التمحيص والتميز:

قال الله عز وجل: ﴿**وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** (١٤١)﴾ [آل عمران: ١٤١]، وقال سبحانه: ﴿**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ...**﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وإن المتأمل في منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبخاصة في سيرة الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين ليرىٰ هذه السنة الربانية واضحة وضوح الشمس، وذلك بما تعرض له المسلمون من الابتلاء والتمحيص في مكة والهجرة والجهاد في سبيل الله عز وجل، وأنهم لم يمكنوا إلا بعد أن ابتلوا ومحصوا.

والابتلاء الذي يتعرض له أصحاب الدعوة نوعان:

أ- **ابتلاء عقوبة وتكفير وتنبيه**: وذلك عندما يحصل الخلل في واحد من الأصول الثلاثة السابقة أو أكثر. فعندما يحصل الخلل في

الفهم والمعتقد أو في النية والمقصد، أو في وحدة الصف وتآلف القلوب فإن الله عز وجل قد يبتلي عباده هؤلاء ببعض العقوبات والابتلاءات لعلهم يرجعون ويراجعون أنفسهم ويكفّر الله عز وجل عنهم بهذه العقوبات سيئاتهم.

ب- ابتلاء تمحيص وتمييز للصفوف:

وهذا النوع من الابتلاء هو الذي نقصده في هذا الأصل وهو الذي يتعرض له أصحاب الفهم الصحيح والقصد الحسن والصف الموحد، والحكمة منه تمحيص القلوب، وتمييز الصفوف مما قد يكون فيها من المنافقين وأصحاب القلوب المريضة والذين يكون ضررهم شديداً على الدعوة فيما لو بقوا مندسين في الصفوف ولم يعرف شأنهم، فيقدر الله عز وجل مثل هذا النوع من الابتلاءات ليتميز المؤمن الصادق من غيره، ويزيد الله عز وجل به المؤمنين إيمانًا وثباتًا وصلابة في إيمانهم، قال الله عز وجل عن المؤمنين في غزوة الأحزاب عندما رأوا الشدائد والأهوال: ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وقال عن المنافقين الذين نجم نفاقهم عند الابتلاء: ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا** ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٢].

فما زادت الشدائد المؤمنين إلا إيمانًا وتسليمًا وما زادت المنافقين إلا مرضًا، وأخرج الله بها ما في قلوبهم من النفاق والكذب والذي ما كان

ليعرف في حال السلم والأمان.

وإن فترات التمحيص والابتلاءات لمن أشد فترات الدعوة علىٰ أهلها، فهي تحتاج إلىٰ جهد عظيم من التعليم والتربية والعبادة والتواصي علىٰ الحق والتواصي بالصبر والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ومن علم الله عز وجل صحة فهمه وحسن قصده وعمله الصالح وحرصه علىٰ الوحدة والاجتماع فإنه سبحانه يثبته ويخرج من الابتلاءات وقد قوي إيمانه وصلب عوده. وعلىٰ مثل هؤلاء ينزل نصر الله تعالىٰ ويقوم عز الإسلام.

وبقيت مسألة مهمة تتعلق بالتميز ألا وهي ضرورة تميز أصحاب الدعوات الذين يريدون التمكين لدين الله تعالىٰ عمن حولهم ممن ابتعدوا عن الدين وتعاليمه وظهور ذلك في تصوراتهم وأفهامهم وفي عبادتهم وسلوكهم وفي دعوتهم وصبرهم وتضحيتهم.

وعليهم أن يوصلوا ما يحملونه من علم ودعوة إلىٰ طبقات الناس قدر استطاعتهم حتىٰ يتم البلاغ وتقوم الحجة ويُعرف أصحاب الدعوة بين الناس بمنهجهم الواضح وأهدافهم العالية، ومن أهم ما يقوم به أصحاب الدعوة حتىٰ يحصل التميز القيام فضحهم للباطل وأهله وتبيين سبيل المجرمين للناس حتىٰ لا تختلط عليهم الأمور ويلتبس الحق بالباطل، ومالم يتم هذا البيان فإن الناس المضللون قد يُستخدمون في

مواجهة أصحاب الدعوة لعدم وضوحهم ووضوح دعوتهم في مجتمعات الناس وذلك بما يستخدمه أعداء الدعوة من تضليل وتلبيس للناس، سواء في تشويه أهل الدعوة وإظهارهم للناس بمظهر المفسدين والمهيجين للفتن أو بما يضفونه علىٰ أنفسهم من أنهم أصحاب الحق وحماته.

فما لم يحصل البلاغ الكافي والذي يتميز فيه الحق من الباطل ويزول التلبيس والتضليل فإن هذا الأصل أعني أصل التميز لم يتحقق بعد وعلىٰ الدعاة الصبر والتأني وبذل الأسباب في تحقيقه قدر الاستطاعة حتىٰ يهلك من هلك عن بينة ويحيىٰ من حي عن بينة، وحتىٰ يعطي الواحد من الناس ولاءه لمن يختاره من أهل الحق أو الباطل عن علم وبينة وطواعية.

الأصل الخامس: اتخاذ الأسباب المادية المتاحة والمباحة في تبليغ الدعوة ومواجهة أعدائها:

والمقصود بهذا الأصل هنا أن لايتكل أصحاب الدعوة علىٰ أنهم مسلمون والله ناصرهم؛ فيفرطون في الأخذ بالأسباب. نعم إن الله عز وجل لو شاء لانتصر من أعدائه بكلمة واحدة، ولكن حكمته سبحانه اقتضت أن ينتصر دينه بجهد البشر، كما قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ** ... ﴾ [محمد: ٤].

وإذا علم الله سبحانه أن عباده المؤمنين المصلحين قد بذلوا ما في طاقتهم من الأخذ بأسباب النصر وأصوله من الفهم والمعتقد الصحيح والمقاصد الحسنة المتجردة لله تعالىٰ واجتماع القلوب وتميز الصف والصبر علىٰ ابتلاءات الطريق، وبذلت الجهود الكبيرة وأخذ بالأسباب والوسائل المتاحة والتي توصل إلىٰ تحقيق هذه الأصول. ومن ذلك الجوانب الاقتصادية التي توفر المال للدعوة، لأنها من أهم الأسباب التي يحصل بها قوة الدعوة وانتشارها واعتماد الدعوة بعد الله تعالىٰ علىٰ نفسها. إذا علم الله سبحانه أن أصحاب الدعوة قد بذلوا كل ما في وسعهم ولم يفرطوا في الأخذ بأسباب النصر السابقة واستعدوا للجهاد في سبيل الله تعالىٰ وقال قائلهم بعد ذلك ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠].

فإن نصر الله عز وجل ينزل حين ذاك كما نزل علىٰ أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، وكما نزل علىٰ عباده المصلحين المجاهدين في مراحل التاريخ الإسلامي. ولم يكلف أصحاب الدعوة بمعرفة الطريقة التي سينزل بها نصر الله تبارك وتعالىٰ، ولكن حسبهم أن يوقنوا بنصر الله عز وجل وأن له سبحانه جنود السموات والأرض وهو علىٰ كل شيء قدير، وأنه سبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. وهذا يقودنا إلىٰ الأصل السادس.

الأصل السادس: التوكل علىٰ الله عز وجل والاستعانة به وحده:

وهذا أصل مهم من أصول النصر والتمكين، وهو في حقيقته داخل في الأصل الأول والثاني، لأن صحة الفهم والمعتقد يجعل أصحاب الدعوة فاهمين لحقيقة التوكل، وأنه يعني تمام الثقة بالله عز وجل والاعتماد عليه مع فعل الأسباب المأمور بها وعدم الاعتماد عليها لأن خالق الأسباب ومسبباتها هو الله عز وجل، كما أن حسن القصد والإخلاص يجعلهم لا يتعلقون بالأسباب ولا يعجبون بأنفسهم وإيمانهم وكثرة أتباعهم، وإنما يوقنون بأنهم ضعفة عاجزون لا حول لهم ولا قوة إذا لم يعنهم الله عز وجل ويقويهم.

وإفراد هذا الأصل هنا في أصل مستقل مع دخوله فيما سبق للتأكيد علىٰ أهميته ولوجود من يغفله في كثير من الأحيان وفي زحمة الأخذ بالأسباب.

وإن الأخذ بهذا الأصل يعني تقوية اللجوء إلىٰ الله عز وجل، ودعائه والتضرع بين يديه في استجلاب النصر ودفع الشر، مما يكون له الأثر في إضفاء الطمأنينة واليقين والثبات، ومن اليقين والثقة بوعد الله عز وجل اليقين الذي لا يتزعزع بأن لله عز وجل جنود السموات والأرض، وأنه سبحانه ينصر عباده المؤمنين الذين أخذوا بأسباب النصر بجند من جنوده ويظهر ذلك للعيان ولو كان عباده في قلة من العدد والعتاد، ولو

كان أعداؤهم في قوة عظيمة من العدد والسلاح وأدوات الدمار.

إنه لا يجوز لأصحاب الدعوة أن ينسوا نصر الله عز وجل لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام بجنوده الذين سخرهم لنصرة عباده الذين بذلوا ما في وسعهم من العبودية له سبحانه والدعوة إلىٰ دينه وإبلاغه للناس والصبر علىٰ ابتلاءات الطريق، فلقد نُصِرَ نوح ﷺ بالطوفان ونصر هود ﷺ بالريح وصالح ﷺ بالصيحة، ومحمد عليه الصلاة والسلام بالرعب والملائكة التي قاتلت معه في بدر وأحد وحنين وغيرها من الغزوات، بل إن الناظر في انتصارات المسلمين بعد ذلك وفتوحاتهم ليلحظ أنهم كانوا دائمًا في قلة من العدد والعتاد مقابل أعدائهم من الفرس والروم وغيرهم ومع ذلك انتصروا بنصر الله عز وجل لهم.

إذن من لوازم التوكل علىٰ الله عز وجل اليقين بتدخل قوة الله عز وجل لنصر عباده المؤمنين بآيات ومعجزات وتثبيت للمؤمنين وبث للرعب في قلوب أعدائهم وغير ذلك مما يقدره سبحانه في وقته المناسب وفق علمه سبحانه وحكمته.

والناس في نصر الله عز وجل لعباده المؤمنين بالآيات والمعجزات طرفان ووسط.

الطرف الأول: الذين يرون أن الله عز وجل سينصر المسلمين بالآيات والجنود الذين يسخرهم للقضاء علىٰ أعداء الدين ولو لم

يأخذوا بأسباب النصر أو لم يكملوها فما داموا مسلمين وأعداؤهم من الكافرين فإن نصر الله عز وجل سينزل عليهم، لأنهم مسلمون وكفىٰ وهذا الفريق من الناس يفرط في العادة في الأخذ بأسباب النصر أو يستطول الطريق فلا يكملها، وإنما ينتظر خارقة وآية من الله عز وجل.

ولا يخفي ما في هذا القول من التفريط والغفلة عن سنن الله عز وجل في النصر والتمكين.

الطرف الثاني: وهو مقابل للطرف الأول وقد يكون ردة فعل له وذلك بقولهم بأنه لكي ينتصر المسلمون علىٰ أعدائهم ويمكن لهم في الأرض فلا بد أن يكونوا مكافئين لعدوهم في العدد والعتاد والسلاح والأخذ بالأسباب المادية، ومثل هؤلاء يغلبّون الأسباب المادية ويفرطون في الأسباب الشرعية، ولا يلتفتون إلىٰ الآيات والمعجزات والإعانات التي ينصر الله سبحانه بها عباده المحققين لأسباب النصر متىٰ شاء سبحانه وعلم أن عباده المؤمنين قد استفرغوا ما في جهدهم من الأخذ بأصول النصر وأسبابه. ومعلوم أن المسلمين في كل وقت وبخاصة في هذا الوقت لم يصلوا ولن يصلوا ولم يكلفهم الله سبحانه بأن يصلوا إلىٰ مستوىٰ أعدائهم في القوة والصناعة والسلاح، لأنه ليس شرطًا في نزول النصر ولا يخفىٰ ما في هذا القول من تطرف وغفلة عن أسباب النصر الشرعية ونسيان لقوة الله تعالىٰ والذي لا يقف أمامها أي قوة في الأرض ولا في السماء والتي ينصر بها عباده المؤمنين الذين أخذوا

بأسباب النصر واستحقوا أن يسخر لهم جنود السموات والأرض.

الوسط:

وهو الحق إن شاء الله تعالى، وهم الذين بذلوا كل ما في وسعهم في الأخذ بأسباب النصر السالفة الذكر، حيث بذلوا ما في وسعهم في الأخذ بالعلم النافع والعمل الصالح وربوا أنفسهم علىٰ ذلك وبلغوه للأمة قدر استطاعتهم حتىٰ عرفتهم الأمة وما هم عليه من الحق وعرفت أعداءهم وما هم عليه من كفر وفساد، وأخذوا بالأسباب المادية المباحة والمتاحة لهم. ومع أخذهم بهذه الأسباب فلم يعتمدوا عليها بل اعتمدوا علىٰ مسبب الأسباب ومن بيده ملكوت السموات والأرض وانتظروا نصره المبين الذي وعد به عباده المؤمنين الذين أخذوا بأسباب النصر وبذلو ا ما في وسعهم في ذلك وانتظروا تأويل قوله سبحانه: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد: ٧]، ولم ينسوا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ۝٧﴾ [الفتح: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، بل هم موقنون بتدخل قوة الله عز وجل وظهور الآيات بعد أن يبذلوا وسعهم في الأخذ بالأسباب وإعداد العدة للجهاد ولم يرهبهم حينئذ قوة أعدائهم من الكفرة والمنافقين مهما بلغت في القوة والدمار، لأن قوة الله عز وجل فوق قوتهم ونواصيهم بيده سبحانه ولو يشاء الله تعالىٰ دمرها عليهم وأبطل مفعولها. ولكن هذا لا يكون إلا لمن حقق أسباب

النصر والتمكين.

أسأل الله عز وجل أن يشرفنا بنصرة دينه، وإعلاء كلمته وأن يمكن لنا ديننا الذي ارتضاه لنا.

والحمد لله رب العالمين

❁ ❁ ❁

المنارة الثالثة والعشرون

الحجاب وأصول الاعتقاد

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد.

فلم يعد خافيًا علىٰ أحد ما تشهده مجتمعات المسلمين اليوم من حملة محمومة من الذين يتبعون الشهوات علىٰ حجاب المرأة وحيائها وقرارها في بيتها، حيث ضاق عطنهم وأخرجوا مكنونهم ونفذوا كثيراً من مخططاتهم في كثير من مجتمعات المسلمين وذلك في غفلة وقلة إنكار من أهل العلم والصالحين، فأصبح الكثير من هذه المجتمعات تعج بالسفور والاختلاط والفساد المستطير، الأمر الذي أفسد الأعراض والأخلاق.

وبقيت بقية من بلدان المسلمين لا زال فيها والحمد لله يقظة من أهل العلم والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر حالت بين دعاة السفور وبين كثير مما يرومون. وهذه سنة الله عز وجل في الصراع بين الحق والباطل والمدافعة بين المصلحين والمفسدين.

ومن كيد المفسدين في مثل المجتمعات المحافظة ووجود أهل العلم

والغيـرة أنهم لا يجـاهرون بنواياهم الفاسـدة ولكنهـم يتسـترون وراء الدين ويُلبسـون باطلهـم بالحق واتبـاع مـا تشـابه منه وهذا شـأن أهل الزيغ، كـمـا وصفـهـم الله عز وجل في قـوله: ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** ﴾ [آل عـمـران: ٧]، وهـم أول من يعلـم أن فـسـاد أي مـجـتـمع إنما يبـدأ بإفـسـاد المرأة واختـلاطهـا بالرجـال. ولو تأملنا في التاريخ لوجـدنا أن أول مـا دخل الفسـاد علىٰ كثير من الأمم فإنما هو مـن باب الفتنة بالنساء، وقـد ثبت عن النبي ﷺ قوله: (**ما تركت بعدي فتنة هي أضر علىٰ الرجال من النساء**)[١].

وهذه حقيقـة لا يماري فيهـا أحد. وملل الكفـر أول من يعرف هذه الحـقيـقـة، حيـث إنهـم من باب الفـتنة بالنسـاء دخلوا علىٰ كـثيـر من مجتمعات المسلمين وأفسـدوها وحققوا أهدافهـم البعيدة، وتبعهـم في ذلك المهـزومون من بني جلدتنا، ممن رضعوا من لبـان الغرب وأفكاره، ولكن لأنـهم يعـيـشـون في بيـئـة مـسلمـة ولا زال لأهل العلم والغيـرة حضورهم فإنهـم - كـمـا سبق بيـان ذلك - لا يتجرأون بطرح مطالبـهـم التـغـريبـيـة بشـكـل صـريح لعلـمـهـم بطبـيـعـة تدين النـاس ورفـضـهـم لطروحـاتهـم وخوفـهـم من الافتـضـاح بين الناس، ولذلك دأبوا علىٰ اتبـاع المتشابهات من الشرع وإخراج مطالبهـم في قوالب إسلامية، ومـا فتئوا

---

(١) البخاري في النكاح (٥٠٩٦)، مسلم في الذكر (٢٧٤٠).

يلبسون الحق بالباطل. ومن هذه الطروحات التي أجلبوا عليها في الآونة الأخيرة مطالبتهم في مجتمعات محافظة بكشف المرأة عن وجهها وإخراجها من بيتها معتمدين بزعمهم علىٰ أدلة شرعية وأقوال لبعض العلماء في ذلك.

ولنا في مناقشة هؤلاء القوم المطالبين بكشف وجه المرأة المسلمة أمام الأجانب واختلاطها بهم في مجتمع محافظ لا يعرف نساؤه إلا الحجاب الكامل والبعد عن الأجانب لنا في ذلك عدة وقفات:

الوقفة الأولى: «إن هناك فرقًا في تناول قضية الحجاب، وهل يدخل في ذلك الوجه أم لا؟ بين أن يقع اختلاف بين العلماء المخلصين في طلب الحق، المجتهدين في تحرِّي الأدلة، الدائرين في حالتي الصواب والخطأ بين مضاعفة الأجر مع الشكر، وبين الأجر الواحد مع العذر، وبين من يتتبع الزلات، ويتحكم بالتشهي، ويرجح بالهوىٰ لأن وراء الأكمة ما وراءها فيؤول حاله إلىٰ الفسق ورقة الدين ونقص العبودية وضعف الاستسلام لشرع الله عز وجل.

وهناك فرق بين تلك الفتاوىٰ المحلولة العقال المبنية علىٰ التجرئ لا علىٰ التحري والتي يصدرها قوم لا خلاق لهم من الصحفيين ومن أسموهم المفكرين تعج منهم الحقوق إلىٰ الله عجيجًا وتضج منهم الأحكام إلىٰ من أنزلها ضجيجًا، يفرقون من تغطية الوجه لا لأن البحث العلمي المجرد أداهم إلىٰ أنه مكروه أو جائز أو بدعة كما

يرجفون، ولكن لأنه يشمئز منه متبوعوهم من كفار الشرق والغرب فاللَّهم باعد بين نسائنا وبناتنا وأخواتنا وبينهم كما باعدت بين المشرق والمغرب»[١].

(... ولك أن تقدر شدة مكر القوم الذين يريدون من جانبهم أن يتبعوا التمدن الغربي، ثم يبررون فعلهم هذا بقواعد النظام الإسلامي الاجتماعي.

... ولقد أُوتيت المرأة من الرخصة في النظام الإسلامي أن تبدي وجهها وكفيها وما دعت إليه الحاجة أو الضرورة في بعض الأحوال، وأن تخرج من بيتها لحاجتها، ولكن هؤلاء يجعلون هذا نقطة البدء وبداية المسير ويتمادون إلىٰ أن يخلعوا عن أنفسهم ثوب الحياء والاحتشام، فلا يقف الأمر بإناثهم عند إبداء الوجه والكفين، بل يجاوزه إلىٰ تعرية الشعر والذراع والنحر إلىٰ آخر هذه الهيئات القبيحة المعروفة، وهي الهيأة التي لا تخص بها المرأة الأزواج والأخوات والمحارم فقط، بل يخرجن بكل تبرج من بيوتهن، ويمشين في الأسواق، ويخالطن الرجال في الجامعات، ويأتين الفنادق والمسارح، ويتبسطن مع الرجال الأجانب ...

ثم يأتي القوم فيحملون رخصة الإسلام للمرأة في الخروج من البيت للحاجة وهي الرخصة المشروطة بالتستر والتعفف علىٰ أنها يحل

---

(١) انظر عودة الحجاب ٣/٤٣٧.

لهـا أن تغـدو وتروح في الطرقـات، وتتـردد إلىٰ المنتـزهات والملاعب والسينما في أبهىٰ زينة، وأفتنها للناظرين، ثم يُتَّخَذُ إذن الإسلام لها في ممارسـة أمـور غـير الشـؤون المنزليـة – ذلك الإذن المقـيـد المشـروط بأحوال خاصة – يتخذ حجة ودليلاً علىٰ أن تودِّع المرأة المسلمة جميع تبعـات الحيـاة المنزليـة، وتدخل في النشـاط السيـاسي والاقتصـادي والعمراني تمامًا وحذو القُذَّة بالقذة كما فعلت الإفرنجية.

وها هو ذا المودودي – رحمه الله – يصرخ في وجوه هؤلاء الأحرار في سياسـتـهم، العبيـد في عقليتهم قائلاً: «ولا ندري أيُّ القرآن أو الحديث يُستخرج منه جواز هذا النمط المبتذل من الحياة؟ وإنكم – يا إخوان التجدد – إن شاء أحدكم أن يتبع غير سبيل الإسلام فهلا يجترئ ويصرح بأنه يريد أن يبغي علىٰ الإسلام، ويتفلت من شرائعه؟ وهلا يربأ بنفسه عن هذا النفاق الذميم والخيانة الوقحة التي تزيِّن له أن يتبع علنًا ذلك النظام الاجتماعي، وذلك النمط من الحياة الذي يحرِّمه الإسلام شكلاً وموضوعًا، ثم يخطو الخطوة الأولىٰ في هذا السبيل باسم اتباع القرآن كي ينخدع به الناس فيحسبوا أن خطواته التالية موافقة للقرآن»[1] أهـ.

---

(١) انظر مقدمة عودة الحجاب للدكتور محمد إسماعيل المقدم ١/ ص ٢٢، ٢٣ باختصار وتصرف يسير.

الوقـفـة الثـانـيـة: وهي نتيجة للوقفة الأولى، وذلك بأن ينظر إلىٰ قضية الحجاب اليوم وما يدور بينها وبين السفور من معارك إلىٰ أنها لم تعد قضية فرعية ومسألة خلافية فيها الراجح والمرجوح بين أهل العلم، ولكنها باتت قضية عقدية مصيرية ترتبط بالإذعان والاستسلام لشرع الله عز وجل في كل صغيرة وكبيرة وعدم فصلها عن شئون الحياة كلها، لأن ذلك هو مقتضىٰ الرضىٰ بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا.

إن التشنيع علىٰ تغطية المرأة لوجهها والتهالك علىٰ خروجها من بيتها واختلاطها بالرجال ليست اليوم مسألة فقهية فرعية، ولكنها مسألة خطيرة لها ما بعدها، لأنها تقوم عند المنادين بذلك علىٰ فصل الدين عن حياة الناس وعلىٰ تغريب المجتمع وكونها الخطوة الأولىٰ أو كما يحلو لهم أن يعبروا عنها بالطلقة الأولى.

وإن لنا في جعل قضية الحجاب اليوم قضية أصولية كلية مع أن محلها كتب الفروع، إن لنا في ذلك أسوة في سلف الأمة حيث صنفوا بعض المسائل الفرعية مع أصول الاعتقاد لما رأوا أن أهل البدع يشنعون علىٰ أهل السنة فيها ويفاصلون عليها؛ من ذلك ما ذكره الإمام الطحاوي في العقيدة الطحاوية بقوله عن أهل السنة والجماعة: «ونرىٰ المسح علىٰ الخفين في السفر والحضر كما جاء في الأثر».

وعلق شارح الطحاوية علىٰ ذلك بقوله: «وتواترت السنة عن رسول الله ﷺ بالمسح علىٰ الخفين وبغسل الرجلين، والرافضة تخالف هذه السنة المتواترة»[١].

ومعلوم أن المسح علىٰ الخفين من المسائل الفقهية، ولكن لأن أهل البدع أنكروه وشنعوا على مخالفيهم فيه، نص العلماء عليه في عقائدهم.

إذن فلا لوم علىٰ من يجعل قضية الحجاب اليوم قضية أصولية مصيرية، وذلك لتشنيع مبتدعة زماننا ومنافقيهم عليه ولحملتهم المحمومة لنزعه وجر المرأة بعد ذلك لما هو أفسد وأشنع من ذلك، وأنها لم تعد مسألة فقهية يتناقش فيها أهل العلم المتجردون لمعرفة الراجح فيها، وجوانب الحاجة والضرورة فيه.

الوقفة الثالثة: لو أن المنادين اليوم بكشف وجه المرأة أمام غير المحارم كانوا في مجتمع يعج بالسفور والتعري الفاضح لأحسنا الظن بهم، وقلنا: لعل قصدهم ارتكاب أهون المفسدتين والتدرج بالنساء في ردهن إلىٰ الحجاب الشرعي والحياء والحشمة شيئًا فشيئًا، حيث إن المرأة التي تكشف وجهها وكفيها فقط في مجتمع متعرٍّ متفسخ هي بلا شك أحسن حالاً ودينًا ممن تتعدىٰ ذلك إلىٰ كشف ما هو أشد

(١) شرح الطحاوية: ص ٣٨٦.

وأشنع. أمـا وإن الذين ينادون اليـوم بنزع الحـجـاب عن الوجـه إنما يوجهون نداءهم إلىٰ مجتمعات محافظة لم يعرف نساؤه إلا الحشمة والحياء وتغطية الوجه والبعد عن الرجال الأجانب، فإن هذا مما يثير العجب ويحير العقل ويضع استفهامات كثيرة علىٰ مطالبهم تلك، فماذا يريدون من ذلك؟ وماذا عليهم لو بقيت نساؤهم وبناتهم وأخواتهم ونساء المسلمين علىٰ هذه الحشمة والعفة والحياء؟ ماذا يضـيـرهم في ذلك. ألا يشكرون الله عـز وجل علىٰ هذه النعـمـة العظيمة؟ ألا يعتبرون بما يرونه في المجتمعات المختلطة المتبرجة حيث ضاعت قوامة الرجل وظهر الفساد وهتكت الأعراض؟! إن زماننا اليوم زمن العجائب وإلا فعلام يشرق قومنا بالفضيلة والطهر والعفاف.

الوقـفـة الرابعـة: ليس المقصود في هذه الوقفات حشد الأدلة الموجبة لستر وجه المرأة وكفيها عن الرجال الأجانب ووجوب الابتعاد عنهم؛ فهي كثيرة وصحيحة وصريحة والحمد لله ويمكن الرجوع إليها في فتاوىٰ ورسائل أهل العلم الراسخين كرسالة الحجاب للشيخ ابن عثيمين حفظه الله تعالىٰ، وكتاب عودة الحجاب القسم الثالث للدكتور محمد بن إسماعيل المقدم حفظه الله؛ الذي توسع في هذا الموضوع ورد علىٰ شبهات المخالفين وإنما المقصود في هذه المقالة ما ذُكر سابقًا في الوقفات الثلاث من فضح نوايا المنادين بكشف الوجه والاختلاط بالرجال، وأن وارء ذلك خطوات وخطوات من الفساد والإفساد.

ومع ذلك يحسن بنا في هذه الوقفة أن نشير إلىٰ أن علماء الأمة في القديم والحديث – من أجاز منهم كشف الوجه ومن لم يجزه – كلهم متفقون ومجمعون علىٰ وجوب ستر وجه المرأة وكفيها إذا وجدت الفتنة وقامت أسبابها، فبربكم أي فتنة هي أشد من فتنة النساء في هذا الزمان، حيث بلغت وسائل الفتنة والإغراء بهن مبلغًا لم يشهده تاريخ البشرية من قبل، وحيث تفنن شياطين الإنس في عرض المرأة بصورها المثيرة في كل شيء، في وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، وأخرجوها من بيتها بوسائل الدعاية والمكر والخداع.

فمن قال بعد ذلك: إن كشف المرأة عن وجهها أو شيء من جسدها لا يثير الفتنة فهو والله مغالط مكابر لا يوافقه في ذلك من له مسكة من دين أو عقل أو مروءة.

وبعد التأكيد علىٰ أن أهل العلم قاطبة متفقون علىٰ وجوب تغطية الوجه إذا وجدت الفتنة يتبين لنا أن خلافهم في ذلك كان محصوراً فيما إذا أمنت الفتنة، ومع ذلك فتجدر الإشارة أيضًا إلىٰ أن هذا القدر من الخلاف بقي خلافًا نظريًّا إلىٰ حَدٍّ بعيد، حيث ظل احتجاب النساء هو الأصل في الهيئة الاجتماعية خلال مراحل التاريخ الإسلامي، وفيما يلي نُقُول عن بعض الأئمة تؤكد أن التزام الحجاب كان أحد معالم «سبيل المؤمنين» في شتىٰ العصور:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «كانت سنة المؤمنين في زمن النبي ﷺ أن الحرة تحتجب، والأمة تبرز»[١] أهـ.

وقال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى: «لم يزل الرجال علىٰ مر الزمان مكشوفي الوجوه والنساء يخرجن متنقبات»[٢].

وقد يتعلق دعاة السفور أيضًا ببعض الحالات التي أذن الشارع للمرأة فيها بكشف وجهها لغير محارمها كرؤية الخاطب لمخطوبته، وعند التداوي إذا عدمت الطبيبة بشرط عدم الخلوة، وعند الشهادة أمام القاضي ونحوها. وهذا كله من يسر الشريعة وسماحة الإسلام حيث رُخص للمرأة إذا اقتضت المصلحة الراجحة والحاجة الماسة أن تكشف عن وجهها في مثل هذه الأحوال، وليس في هذا أدنىٰ متعلق لدعاة السفور لأن الأصل هو الحجاب الكامل وهذه رخص تزول إذا زالت الحاجة إليها.

الوقفة الخامسة: ومن منطلق النصح والشفقة وإقامة الحجة أتوجه بالكلمات التالية إلىٰ أولئك القوم الذين ظلموا أنفسهم وأساءوا إلىٰ مجتمعهم وأمتهم وخانوا أماناتهم وحملوا بذلك أوزارهم وأوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون، فأرجو أن تجد هذه

---

(١) تفسير سورة النور: ص ٦٥.

(٢) إحياء علوم الدين ٤ / ٧٢٩.

الكلمات آذانًا صاغية وقلوبًا واعية قبل مباغتة الأجل وهجوم الموت حيث لا تقبل التوبة ولا ينفع الندم.

١- أذكركم بموعظة الله تعالى؛ إذ يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ...﴾ [سبأ: ٤٦].

فماذا عليكم لو قام كل فرد منكم مع نفسه أو مع صاحبه، ثم فكرتم فيما أنتم عليه من إفساد وصد عن سبيل الله عز وجل، هل أنتم مقتنعون بما تفعلون وبما تتسببون به إلىٰ أمتكم من الفتن؟ وهل هذا يرضي الله تعالى، ويجلب النعيم لكم في الآخرة؟ إنكم إن قمتم لله عز وجل متجردين مثنىٰ أو فرادى، وفكرتم في ذلك؛ فإن الجواب البدهي هو أن الفساد والإفساد لا يحبه الله عز وجل، بل يمقته، ويمقت أهله، وسيأتي اليوم الذي يمقت فيه أهل الفساد أنفسهم، ويتحسرون علىٰ ما فرطوا وضيعوا وأفسدوا، وذلك في يوم الحسرة؛ حيث لا ينفع التحسر ولا التندم، فعليكم بالتوبة قبل أن يحال بينكم وبينها.

٢- أذكركم بيوم الحسرة والندامة يوم يتبرأ منكم الأتباع وتتبرءون من الأتباع، ولكن حين لا ينفع الاستعتاب ولا التنصل ولا التبرؤ، بل كما قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣٣].

٣- أذكركم بالأثقال العظيمة التي ستحملونها يوم القيامة من أوزاركم وأوزار الذين تضلونهم بغير علم إن لم تتوبوا، قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال عز وجل: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: ٢٥].

وإن الظالمين جميعهم رئيسهم ومرءوسيهم، تابعهم ومتبوعيهم لهم يوم مشهود ويوم عصيب، يوم يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضًا، ويحيل التبعة بعضهم علىٰ بعض، ولكن حين لا يجدي لهم ذلك إلا الخزي والبوار.

٤- إن لم يجد واعظ الله سبحانه والدار الآخرة فيكم فلا أقل من أن يوجد عندكم بقية مروءة وحياء تمنعكم من إفساد المرأة وإفساد المجتمع بأسره.

إن المتأمل في حال المتبعين للشهوات اليوم ليأخذه العجب والحيرة من أمرهم! فما لهم وللمرأة المسلمة التي تقر في منزلها توفر السكن لزوجها وترعىٰ أولادها، ماذا عليهم لو تركوها في هذا الحصن الحصين تؤدي دورها الذي يناسب أنوثتها وطبيعتها. ماذا يريدون من عملهم هذا ؟!

ثم ماذا عليهم لو تركوا أولاد المسلمين يتربون علىٰ الخير والدين والخصال الكريمة؟ ماذا يريدون من إفسادهم وتسليط برامج الإفساد المختلفة عليهم؟ هل يريدون جيلاً منحلا يكون وبالاً علىٰ مجتمعه ذليلاً لأعدائه عبداً لشهواته؟ إن هذه هي النتيجة . وإن من يسعىٰ لهذه النتيجة الوخيمة التي تتجه إليها الأسر المسلمة اليوم لهو من أشد الناس خيانة لمجتمعه وأمته وتاريخه.

إن من عنده أدنىٰ مروءة ونخوة – فضلاً عن الدين والإيمان – لا يسمح لنفسه أن يكون من هؤلاء الظالمين المفسدين، وما ذكر من إفساد الأسرة إنما هو علىٰ سبيل المثال لا الحصر.

فيا من وصلوا إلىٰ هذا المستوىٰ من الهبوط والجناية توبوا إلىٰ ربكم، وفكروا في غايتكم ومصيركم، واعلموا أن وراءكم أنباء عظيمة وأهوالاً جسيمة تشيب لها الولدان، وتشخص فيها الأبصار، فإن كنتم تؤمنون بهذا فاستيقظوا من غفلتكم وراجعوا أنفسكم، والله جل وعلا يغفر الذنوب جميعًا، وإن كنتم لا تؤمنون بذلك فراجعوا دينكم، وادخلوا في السلم كافة قبل أن يحال بينكم وبين ما تشتهون.

٤– يا قومنا أعدوا للسؤال جوابًا وذلك حين يسألكم عالم الغيب والشهادة عن مقاصدكم في حملتكم، وإجلابكم علىٰ المرأة وحجابها وقرارها في بيتها، فماذا أنتم قائلون لربكم سبحانه؟ إنكم تستطيعون

أن تفروا من المخلوق فتدلسون وتلبسون وقد يظهر تدليسكم هذا في لحن القول وقد لا يظهر. لكن كيف الفرار ممن يعلم ما تخفون وما تعلنون ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨]، فتوبوا إلىٰ علام الغيوب ما دمتم في زمن التوبة، وصححوا بواطنكم قبل أن يبعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور.

وختامًا:

أوصي نفسي وإخواني المسلمين الحريصين علىٰ دينهم وأعراضهم وسلامة مجتمعاتهم من الفساد أن يكونوا يقظين لما يطرحه الظالمون لأنفسهم وأمتهم من كتابات وحوارات مؤداها إلىٰ سفور المرأة واختلاطها بالرجال الأجانب، فمادامت المدافعة بين المصلحين والمفسدين فإن الله عز وجل يقذف بالحق علىٰ الباطل فإذا هو زاهق. وينبغي أن لا ننسىٰ في خضم الردود علىٰ ما يكتبه المفسدون من الشبهات والشهوات ذلك السيل الهادر الذي يتدفق من وسائل الإعلام المسموعة والمرئية في بلاد المسلمين وذلك بما تبثه الإذاعات والتلفاز والقنوات الفضائية من دعوة للمرأة إلىٰ السفور ومزاحمة الرجال في الأعمال والطرقات والتمرد علىٰ الرجل، سواءً كان أبًا أو زوجًا أو أخًا، ولقد ضربت هذه الوسائل بأطنابها في بلاد المسلمين فكان لزامًا علىٰ المصلحين محاربتها وإبعادها عن بيوت المسلمين قدر الاستطاعة، فإن لم يكن إلىٰ ذلك سبيل فلا أقل من تكثيف الدعاية ضدها والتحذير

من شرها ووقاية المسلمين من خطرها وذلك بإصدار الفتاوى المتتابعة والخطب المكثفة حول أضرارها وأثرها المدمر للدين والأخلاق فإنها والله لا تقل خطراً عما تكتبه الأقلام الآثمة عن المرأة إن لم تزد عليه.

والمقصود أن لا يكتفي المصلحون بمحاربة ما يكتبه المفسدون في الصحف والمجلات عن المرأة فإن هم سكتوا سكت المصلحون وظنوا أن الخطر قد انتهى. كلا إن الخطر لم ينته وإن المعركة مستمرة لأن الخطر الأكبر لا يزال قائماً ما دامت الوسائل المسموعة والمرئية لا تكف عن المرأة والاستهزاء بحجابها وقرارها في بيتها وقوامة الرجل عليها، وإثارة الشبهات في ذلك.

أسأل الله عز وجل أن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن وأن يعز دينه ويعلي كلمته وأن يرد كيد المفسدين في نحورهم؛ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

✿ ✿ ✿

المنارة الرابعة والعشرون

الله أكبر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن من أفضل ما تقرب به العبد إلى ربه عز وجل: ذكره والثناء عليه وتعظيمه وتمجيده؛ ولذا شرعت الأذكار الموظفة في اليوم والليلة، فضلاً عن أذكار الصلاة والحج، والاجتماعات المشروعة للمسلمين في شهورهم وأعوامهم.

وإن المتأمل في كثير من هذه الأذكار يجدها في تمجيد الرب عز وجل وتعظيمه والثناء عليه والشهادة له بالوحدانية والعبودية المتضمنة للملك والإحاطة والقهر والغنى والحمد، كما يجدها في إظهار حاجة العبد وفاقته واستعانته بربه عز وجل في جلب المنافع ودفع الشرور.

وإن ذكر الله عز وجل بأسمائه وصفاته وأفعاله الحسنى والمشروعة في الكتاب والسنة إنما يقصد منها التعبد لله سبحانه بها ودعاؤه والتوسل إليه بها؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والدعاء لله سبحانه بها لا يتم بمجرد

نطقها باللسان ودون تدبر لمعناها، ودون ظهور آثارها في القلب وعلىٰ الجوارح؛ وإنما كمال التعبد له سبحانه بأسمائه وصفاته يكون بفهم معناها، ونطقها باللسان، ومواطأة القلب مع اللسان، وظهور آثارها في قلب الذاكر وحياته؛ وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ بعد أن ذكر أنواع الأذكار: « .. وهي تكون بالقلب واللسان تارة، وذلك أفضل الذكر، وبالقلب وحده تارة، وهي الدرجة الثانية، وباللسان وحده تارة، وهي الدرجة الثالثة؛ فأصل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان؛ وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده لأن ذكر القول يثمر المعرفة ويهيج المحبة ويثير الحياء، ويبعث علىٰ المخافة ويدعو إلىٰ المراقبة ويزع عن التقصير في الطاعات والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئًا من هذه الآثار، وإن أثمر شيئًا منها فثمرة ضعيفة »[١].

وإن من أعظم الأذكار التي يحبها الله عز وجل والتي شرعها في كتابه وسنة نبيه ﷺ: ذكره سبحانه بالتكبير؛ وذلك بقول: « الله أكبر ». ولو تتبعنا المواطن التي شرع فيها هذا الذكر العظيم المحبوب لله تعالىٰ وندب الناس إليه وحثهم عليه لوجدناها كثيرة جدًا.

---

(١) الوابل الصيب، ص: ١٨١، ت: بشير عيون.

فمن ذلك:

١- قول الله تعالىٰ بعد آيات الصيام: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)﴾ [البقرة: ١٨٥].

٢- وقوله عز وجل عن ذبح الأنساك في الحج: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾ [الحج: ٣٧].

٣- قول «الله أكبر» للدخول في الصلاة، فتحريم الصلاة التكبير وتحليلها السلام.

٤- وكذلك تكرار التكبير للانتقال من ركن إلىٰ ركن في الصلاة.

٥- الإتيان به في الأذان والإقامة في أولها وآخرها وبصورة مكررة.

٦- عند الشروع في الطواف حول الكعبة وعند محاذاة الحجر الأسود في كل شوط.

٧- عند الصفا والمروة في السعي بينهما

٨- عند ركوب الدابة وفي السفر وعند الارتفاع علىٰ كل شرف من الأرض.

٩- عند رمي الجمرات في الحج.

١٠- مشروعيته في عشر ذي الحجة وأيام التشريق.

١١- مشروعيته ليلة عيد الفطر إلىٰ أن تنقضي الصلاة.

١٢- مشروعيته مع التسبيح والتحميد عقب صلاة الفريضة

١٣- مشروعيته مع التسبيح والتحميد عند النوم.

١٤- مشروعيته مع التسبيح والتحميد عند ما يتعارّ الإنسان من نومه.

١٥- عند رؤية الهلال في أول الشهر.

١٦- الذكر المطلق بالتكبير والتحميد والتسبيح والتهليل، وأنهن الباقيات الصالحات وأنهن من أحب الكلمات إلىٰ الله تعالىٰ.

١٧- قول بسم الله والله أكبر عند ذبح الأضحية والهدي، والذبح عمومًا.

١٨- قولها في الجهاد في سبيل الله تعالىٰ وأثر ذلك في هزيمة الأعداء وسقوط المدن، كما قالها الرسول ﷺ في فتح خيبر، وكما أخبر الرسول ﷺ عن الجيش الذي يغزو القسطنطينية في آخر الزمان وأنه بالتكبير تسقط جوانب المدينة جانبًا جانبًا.

١٩ عند روية آيات الله عز وجل، وعند التعجب وتعظيم الله عز وجل.

وقد أوردت الأمثلة السابقة دون أدلتها طلبًا للاختصار ولاستفاضة صحتها ومعرفتها عند العام والخاص كالتكبير في الصلاة والأذان والأذكار دبر الصلوات ومن أراد الوقوف علىٰ أدلة كل حالة فليرجع إلىٰ ذلك في مظانها ككتب الأذكار والدعوات.

وأود في هذه العجالة الوقوف عند هذا الذكر الجليل وما يحمله من معاني العظمة والجلال والكبرياء وما ينبغي أن يثمره في قلب المؤمن وأعماله من الآثار التي تدل علىٰ تكبير الله عز وجل وتعظيمه وتعظيم أوامره؛ قال الله عز وجل: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

وبالتأمل في هذه المواطن والأحوال التي شرع فيها هذا الذكر العظيم نجدها إما قبل الشروع في عبادة أو بعدها، أو في المواضع الكبار التي يجتمع فيها الناس، أو في حضور عدو من شياطين الجن أو الإنس، أو عند رؤية آية من آيات الله عز وجل.

وعن سر التكبير في هذه المواطن يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ بعد أن ساق بعض هذه المواضع: « ... وهذا كله يبين أن التكبير مشروع في المواضع الكبار لكثرة الجمع أو لعظمة الفعل أو لقوة الحال أو نحو ذلك من الأمور الكبيرة ليبين أن الله أكبر وتستولي كبرياؤه في القلوب علىٰ كبرياء تلك الأمور الكبار؛ فيكون الدين كله لله ويكون العباد له مكبرين، فيحصل لهم مقصودان: مقصود العبادة بتكبير قلوبهم لله، ومقصود الاستعانة بانقياد سائر

المطالب لكبريائه»(١).

وعن معنىٰ «الله أكبر» يقول رحمه الله تعالىٰ: «وفي قول الله أكبر إثبات عظمته، فإن الكبرياء يتضمن العظمة، ولكن الكبرياء أكمل، ولهذا جاءت الألفاظ المشروعة في الصلاة والأذان بقول الله أكبر فإن ذلك أكمل من قول الله أعظم»(٢).

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ عن معنىٰ التكبير: «... فالله سبحانه أكبر من كل شيء ذاتًا وقدراً وعزة وجلالة، فهو أكبر من كل شيء في ذاته وصفاته وأفعاله»(٣).

ويفصل ابن القيم رحمه الله تعالىٰ سر التكبير في بعض المواضع. فيقول عن التكبير للدخول في الصلاة: «... لما كان المصلي قد تخلىٰ عن الشواغل وقطع جميع العلائق وتطهر وأخذ زينته وتهيأ للدخول علىٰ الله تعالىٰ ومناجاته شرع له أن يدخل دخول العبيد علىٰ الملوك، فيدخل بالتعظيم والإجلال فشرع له أبلغ لفظ يدل علىٰ هذا المعنىٰ وهو قول: الله أكبر فإن في اللفظ من التعظيم والتخصيص والإطلاق في جانب المحذوف المجرور بمن مالا يوجد في غيره»(٤).

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٤/٢٢٩.

(٢) المصدر السابق: ١٠/٢٥٣.

(٣) الصواعق المرسلة: ٤/١٣٧٩.

(٤) بدائع الفوائد: ٢/٤٢٢.

ويقول أيضاً عن سر التكبير في الصلاة « . . . فإن العبد إذا وقف بين يدي الله عز وجل وقد علم أن لا شيء أكبر منه وتحقق قلبه ذلك وأشربه سره استحيا من الله ومنعه وقاره وكبرياؤه أن ينشغل قلبه بغيره ومالم يستحضر هذا المعنىٰ فهو واقف بين يديه بجسمه، وقلبه يهيم في أودية الوساوس والخطرات، وبالله المستعان، فلو كان الله أكبر من كل شيء في قلب هذا لما اشتغل عنه بصرف كلية قلبه إلىٰ غيره كما أن الواقف بين يدي الملك المخلوق لما لم يكن في قلبه أعظم منه لم يشغل قلبه بغيره ولم يصرفه عنه صارف »[١].

وعن سر التكبير عند رؤية الحريق وأثر ذلك في إخماده يقول رحمه الله تعالىٰ: « . . . لما كان الحريق سببه النار وهي مادة الشيطان التي خلق منها، وكان فيه من الفساد العام ما يناسب الشيطان بمادته وفعله كان للشيطان إعانة عليه وكانت النار تطلب بطبعها العلو والفساد، وهذان الأمران وهما العلو في الأرض والفساد هما هدي الشيطان وإليهما يدعو وبهما يهلك بني آدم، فالنار والشيطان كل منهما يريد العلو في الأرض والفساد. وكبرياء الرب عز وجل تقمع الشيطان وفعله، ولهذا كان تكبير الله عز وجل له أثر في إطفاء الحريق، فإن كبرياء الله عز وجل لا يقوم لها شيء، فإذا كبر المسلم ربه أثر

---

(١) حاشية ابن القيم على سنن أبي داود ١ / ٦٤ عون المعبود.

تكبيره في خمود النار وخمود الشيطان التي هي مادته فيطفئ الحريق وقد جربنا نحن وغيرنا فوجدناه كذلك، والله أعلم»(١).

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ عند قوله تعالىٰ ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]: أي: تعظموه وتجلوه علىٰ ما هداكم، أي: مقابلة لهدايته إياكم، فإنه يستحق أكمل الثناء وأجل الحمد، وأعلىٰ التعظيم» أهـ(٢).

وقد ورد ذكر التكبيرعلىٰ الهداية في موضعين من القرآن:

الأول: بعد ذكر الصيام وما شرعه الله عز وجل فيه من الرخصة والتيسير، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقد أخذ كثير من المفسرين من هذه الآية مشروعية التكبير بعد رؤية هلال شهر شوال إلىٰ انقضاء صلاة العيد.

والثاني: بعد قضاء مناسك الحج وعند ذبح الهدي والأضاحي، قال تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٣٧].

---

(١) زاد المعاد: ٤/٢١٢، ٢١٣.

(٢) تفسير السعدي ٣/٢٩٣.

وعن مشروعية التكبير على الهداية يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: «ولهذا شرع التكبير على الهداية والرزق والنصر، لأن هذه الثلاث أكبر ما يطلب العبد وهي جماع مصالحه. والهدىٰ أعظم من الرزق والنصر ،لأن الرزق والنصر قد لا ينتفع بهما إلا في الدنيا، وأما الهدىٰ فمنفعته في الآخرة قطعاً» أ.هـ(١).

ويبقىٰ أن نشير في نهاية الكلام إلىٰ الثمرة الحقيقية لهذا الذكر العظيم ألا وهي: ما يقوم في القلب عند الإتيان بهذا الذكر من الإجلال والتعظيم والمحبة والإخلاص والخوف والرجاء لله تعالىٰ والتوكل عليه وحده سبحانه، لأن استحضار كبريائه سبحانه وعظمته وجبروته وقهره لكل شيء يوجب هذه الآثار بحيث يتوجه العبد بقلبه وقالبه لربه العظيم الكبير الذي هو أكبر من كل شيء، فيستحي أن يلتفت إلىٰ غيره أو يأبه به، كما أشار إلىٰ ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ في النقولات السابقة، ولهذه الآثار القلبية علامات منها:

١- تعظيم شعائر الله عز وجل وحرماته، لأن في ذلك دليلاً علىٰ الخضوع لكبرياء الله عز وجل وعظمته ودليلاً علىٰ تقوىٰ الله عز وجل وإجلاله ومحبته والخوف منه.

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٤/٢٢٩، ٢٣٠.

قال تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢]، ويدخل في ذلك تعظيم أوامره سبحانه فتؤدىٰ وتعظيم نواهيه فتجتنب وتتقىٰ إذ لا أثر لتكبير الله تعالىٰ وتعظيمه إذا لم تعظم أوامره ونواهيه؛ يقول ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «تعظيم الأمر والنهي ناشئ عن تعظيم الآمر والناهي فإن الله تعالىٰ ذم من لا يعظم أمره ونهيه، وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣]، قالوا في تفسيرها: مالكم لا تخافون لله تعالىٰ عظمة... وأول مراتب تعظيم الحق عز وجل تعظيم أمره ونهيه... وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله عز وجل واتباعه وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالىٰ ونهيه دالا علىٰ تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والتصديق وصحة العقيدة والبراءة من النفاق؛ فإن الرجل قد يتعاطىٰ فعل الأمر لنظر الخلق وطلب المنزلة والجاه عندهم ويتقي المناهي خشية سقوطه من أعينهم وخشية العقوبات الدنيوية من الحدود التي رتبها الشارع علىٰ المناهي فهذا ليس فعله وتركه صادراً عن تعظيم الأمر والنهي ولا تعظيم الآمر والناهي.

ومن علامات التعظيم للأوامر: رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش علىٰ أركانها وواجباتها وكمالها والحرص علىٰ تحينها في أوقاتها، والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند

فوت حق من حقوقها كمن يحزن علىٰ فوت الجماعة، ويعلم أنه لو تقبلت منه صلاته منفرداً فإنه قد فاته سبعة وعشرون ضعفًا، ولو أن رجلاً يعاني البيع والشراء تفوته صفقة واحدة في بلده من غير سفر ولا مشقة قيمتها سبعة وعشرون ديناراً لأكل يديه ندمًا وأسفًا، فكيف وكل ضعف مما تضاعف به صلاة الجماعة خير من ألف، وألف ألف، وما شاء الله تعالىٰ، فإذا فوّت العبد عليه هذا الربح قطعًا، وهو بارد القلب فارغ من هذه المصيبة غير مرتاع لها، فهذا من عدم تعظيم أمر الله تعالىٰ في قلبه، وكذلك إذا فاته أول الوقت الذي هو رضوان الله تعالىٰ، أو فاته الصف الأول... وكذلك فوت الخشوع في الصلاة وحضور القلب فيها. وينبغي أن يعلم أن سائر الأعمال تجري هذا المجرىٰ، فتفاضل الأعمال عند الله تعالىٰ بتفاضل ما في القلوب من الإيمان، والإخلاص والمحبة وتوابعها...

وأما علامات تعظيم المناهي: فالحرص علىٰ التباعد من مظانها وأسبابها، وما يدعو إليها ومجانبة كل وسيلة تقرب منها، كمن يهرب من الأماكن التي فيها الصور التي تقع بها الفتنة خشية الافتتان بها، وأن يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس... ومجانبة من يجاهر بارتكابها ويحسنها ويدعو إليها ويتهاون بها، ولا يبالي بما ارتكب منها؛ فإن مخالطة مثل هذا داعية إلىٰ سخط الله تعالىٰ وغضبه ولا يخالطه إلا من سقط من قلبه تعظيم الله تعالىٰ وحرماته.

ومن علامات تعظيم النهي: أن يغضب لله عز وجل إذا انتهكت محارمه، وأن يجد في قلبه حزنًا وحسرة إذا عُصِيَ الله تعالىٰ في أرضه، ولم يُضطلع بإقامة حدوده وأوامره، ولم يستطع هو أن يغير ذلك.

ومن علامات تعظيم الأمر والنهي أن لا يسترسل مع الرخصة إلىٰ حد يكون صاحبه جافيًا غير مستقيم علىٰ المنهج الوسط؛ مثال ذلك أن السنة وردت بالإبراد بالظهر في شدة الحر، فالترخص الجافي أن يبرد إلىٰ فوات الوقت أو مقاربة خروجه فيكون مترخصًا جافيًا...

... فحقيقة التعظيم للأمر والنهي أن لا يعارضا بترخص جاف، ولا يعرضا لتشديد غالٍ؛ فإن المقصود هو الصراط المستقيم الموصل إلىٰ الله عز وجل بسالكه. وما أمر الله عز وجل بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان إما تقصير وتفريط، وإما إفراط وغلو، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين...

... **ومن علامات تعظيم الأمر والنهي**: أن لا يحمل الأمر علىٰ علة تضعف الانقياد والتسليم لأمر الله عز وجل، بل يسلم لأمر الله تعالىٰ وحكمه، ممتثلاً ما أمر به، سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر، فإن ظهرت له حكمة الشرع في أمره ونهيه حمله ذلك علىٰ مزيد الانقياد والبذل والتسليم...»[(١)].

---

(١) الوابل الصيب: ت بشير عيون (ص١٢ – ٢٦)، وطبعة دار الصحابة تحقيق مصطفى العدوي (١٣ – ٢٥ باختصار وتصرف.

٢- الاستعانة بالله وحده وصدق التوكل عليه وتفويض الأمور إليه مع الأخذ بالأسباب المشروعة وعدم الركون إليها وإنما الركون إلىٰ الكبير المتعال الذي قهر كل شيء بكبريائه وعظمته وخضع لسلطانه كل مخلوق مهما علا شأنه، وهذا بدوره يورث الطمأنينة والثقة الكاملة بالله عز وجل الذي نواصي الخلق بيده سبحانه مما يكون له أثر عظيم في الثبات ورباطة الجأش عند الشدائد والمخاوف.

٣- الخوف منه سبحانه وحده وعدم الخوف من المخلوق الضعيف الذي لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا فضلاً عن أن يملكه لغيره، وحينما ينطق العبد بهذا الذكر العظيم وتقوم في القلب معانيه وآثاره فإن هذا ينعكس علىٰ أعماله وأحواله ومواقفه بحيث لا تطير نفسه شعاعًا عندما يصدر من مخلوق متمكن تهديد في رز ق أو حياة وإنما تكبير الله عز وجل بلسانه وقلبه يجعله ينظر إلىٰ المخلوق الضعيف بما يناسب قدره وتستولي علىٰ القلب عظمة الله سبحانه وكبرياؤه فتتبدد المخاوف ويحل محلها الشجاعة والطمأنينة والإقدام وعدم الانصياع للتهديد والتخويف.

٤- محبة ما يحبه الله عز وجل وبغض ما يبغضه بحيث يكون هواه تبعًا لما يحبه الله تعالىٰ ومضاداً لما يبغضه الله عز وجل، ومن علامات ذلك محبة الرسول ﷺ ومحبة المؤمنين وموالاتهم وبغض من يبغضهم الله عز وجل من الكفار والمنافقين وإذا اقتضىٰ الأمر أن

يجاهدهم فإن المكبر لله عز وجل بقلبه وقالبه من أول المجاهدين الذين يبيعون أنفسهم لله عز وجل الكبير المتعال.

٥- تعظيم كتابه سبحانه وعدم التقدم بين يديه بحيث ينقاد له ويسلم ويحكِّمه في الصغير والكبير ويتحاكم إليه ويرضىٰ بحكمه ويسلم. فلم يعظم الله عز جل من هجر كتابه ولم يحكم به أو يتحاكم إليه.

٦- تكبير الله عز وجل بالقلب واللسان يقتضي الاستسلام الدائم لله عز وجل في كل وقت ومكان بحيث يصاحبه تكبير الله عز وجل في مسجده وبيته وعمله وسوقه في ليل أو نهار في سر أو إعلان. وعندما يدخل العبد في السلم كافة بتكبيره لله عز وجل في كل آن تختفي تلك الصور المتناقضة الفصام النكد الذي يُرىٰ اليوم في حياة كثير من الناس. وذلك بأن تجد بعض المسلمين يكبرون الله عز وجل في المسجد أثناء الصلاة ودبرها وفي مواطن عديدة أخرىٰ وهذا حسن ومطلوب لكن أين هذا التكبير في المنزل الذي انتشرت فيه أجهزة الفساد وكثرت فيه المحرمات؟

وأين التكبير في أسواق البيع والشراء الذي يسود فيه الربا والبيوع المحرمة؟

وأين التكبير في الأعمال التي تسودها الرشوة والمحسوبية وأكل الأموال بالباطل؟

وأين التكبير في السياسة والحكم الذي لا حكم فيه لكتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ولا ولاء فيه ولا براء إلا للمصالح والأهواء؟

إن تكبير الله عز وجل في حقيقته يعني أن يكون (الله أكبر) في البيوت وفي الأسواق وفي الأعمال وفي الاقتصاد وفي السياسة والحكم وفي جميع شئون الحياة فلا يعلو على أوامر الله عز وجل وأحكامه شيء؛ وإلا فما معنى قول الله أكبر؟ إن علينا المسلم أن نتدبر معنى التكبير وكما نقوله في المسجد وفي صلاتنا وأذكارنا؛ يجب أن نقوله ونقوم بمقتضاه في جميع أحوالنا وأوقاتنا وأوضاعنا. قال الله عز وجل: ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا** (١١١) ﴾ [الإسراء: ١١١]، يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: «أي: عظمه وأجلّه بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالثناء عليه بأسمائه الحسنى، وبتحميده بأفعاله المقدسة، وتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له وإخلاص الدين كله له»[١].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

---

(١) تفسير السعدي: ٣/١٠٨.

الفهــــرس

التنضيد الضوئي والإخراج
بدار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض
ش. السويدي العام - ت: ٤٢٥٣٧٣٧

هذا الكتـــاب

- هذه المنارات هي بمثابه أعلام مرشدة في طريق الدعوة إلى الله عز وجل .
- وهي نتاج ملاحظات وخواطر وتأملات في واقع الدعوة والدعاة، لئن كان الكثير منها لا يخفى على الدعاة إلا أن المرء قد يغفل عن العمل بمقتضاها بسبب تداخل الأعمال أو تأثير الواقع وضغطه ، ولهذا كتبها مؤلفها تذكيراً بها ولفتاً للأنظار إليها.
- وقد بلغت هذه المنارات أربعاً وعشرين منارة ؛ منها على سبيل المثال :

- من المقصود بالدعوة إلى الله عز وجل ؟

- لماذا الدعوة إلى الله عز وجل ؟

- ضعف التأصيل وتأصيل الضعف .

- التدرج في الإصلاح والدعوة .

- فتنة المنافقين وأثرها على الدعوة .

- الفهم الصحيح للورع والزهد.

- الأخلاق وصلتها بالعقيدة.

- من هو الحر؟ وما حقيقة الحرية؟

- المفهوم الصحيح للصبر ومتى يكون نافعاً للداعية؟

- ضع نفسك مكانه!

- خطر الهوى والتعصب على الدعاة وطلبة العالم.

- فتنة مسايرة الواقع.

- المداراة لا المداهنة.

- أسباب النصر وأصول التمكين.

- الحجاب وأصول الاعتقاد.

- الله أكبر.

- نسأل الل ... الكتاب كاتبه وقارئه، وأن يرزقنا جميعاً الإخلاص في القول والعمل ... ينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الناشر

ردمك: ٩٩٦٠ - ٨٠٠ - ٤٧ - ٤